تدبر
مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر سورة يوسف

تهذيب (آيات للسائلين)



أ.د. ناصر بن سليمان العمر

الطبعة الأولى
دار الحضارة للنشر والتوزيع

تدبر سورة يوسف

تهذيب (آيات للسائلين)

أ.د. ناصر بن سليمان العمر



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر سورة يوسف

تهذيب آيات للسائلين

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ - تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

. . . .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر بن سليمان

تدبر سورة يوسف (تهذيب آيات للسائلين).

/ ناصر بن سليمان العمر - ط١ - الرياض، ١٤٣٦هـ

١٢٨ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٥-٧٩٨٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- قصص القرآن ٢- القرآن - سورة يوسف أ. العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ٤٤٣٥ / ١٤٣٦

رقم الإيداع: ٤٤٣٥ / ١٤٣٦

ردمك: ٥-٧٩٨٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فكنت قد رأيت أن أشرع في دروس أفسر فيها سورة يوسف؛ لما تضمنته من العبر التي تمس واقعنا، والبراهين التي تثبتها في نفوس المتسائلين، والهدى الذي ترشدهم إليه، والرحمة التي تنال من اهتدى بهداها منهم، كما قال ربنا عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف: ٧]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، فكانت سلسلة دروس بجامع خالد بن الوليد، بروضة الرياض، فرغت منها عام أربعة وعشرين وأربعمائة وألف، ثم شرعت بعد نحو عام في تسجيل حلقات بعنوان (آيات للسائلين)، بلغت بضعًا وخمسين حلقة، بثتها بعض الفضائيات في دول مختلفة والحمد لله، ثم بعد ذلك طلب عدد من الإخوة إخراج المادة في كتاب، ورأيت مناسبة ذلك، فحُرِّرت المادة بمعاونة المكتب العلمي، وأُضيف إليها وعدل فيها، وخرج الكتاب عام تسعة وعشرين وأربعمائة وألف، ولقي بحمد الله ثناء طيبًا من بعض أفاضل المتخصصين، إلاّ أني رأيت أن فيه طولًا واستطرادًا قد يعوق كثيرًا من الناس عن الانتفاع به، ولا سيما مع تفرُّق الهمِّ، وضعف الهِمم، وتوافر الصوراف في عصرنا هذا، فكان من همي تقريبه وتهذيبه بحيث لا يطول على عامة المسلمين، أو تقصر عنه أنفاس غير المتخصصين، أوطلاب العلم الجادين، وقد تيسر أخيرًا بتوفيق الله اختصاره

في هذا الكتاب، وقد كان المنهاج في تهذيبه الاقتصار على الفوائد التي تدعو إلى التدبر، وتنفع عامة الناس، ومن أهم ما جرى به العمل:

١- الاقتصار على القول الأقرب في أغلب المسائل التي عرضت فيها أقوال.

٢- حذف كثير من الاستطرادات الشعرية والتفصيلات اللغوية والشروح اكتفاء بخلاصتها.

٤- تقديم وتأخير بعض المواطن.

٥- الاقتصار على عبارات الأصل إلاّ في مواضع قليلة.

هذا والله أسأل أن يحقق المقاصد، ويصلح النيات، ويجزي من أسهم في هذا المشروع خير الجزاء، فقد تضافرت عليه همم وجهود، من مبدئه وحتى منتهاه، وكذلك الشكر موصول والدعاء بالخير حاصل لكل من أرسل بفائدة، أو نبه على شيء رأى التنبيه عليه.

وختامًا لكم معاشر قراء هذا الكتاب دعوة بأن يبارك الله فيكم، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا من المقبلين على كتابه، المتدبرين لآياته، والحمد لله على آلائه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه.

وكتب: ناصر بن سليمان العمر

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

الجمعة ٠٥/ ٠٢/ ١٤٣٦هـ

naser@almoslim.net





أسباب اختيار السورة

لقد اخترت هذه السورة الكريمة لأسباب كثيرة، منها:

١- ما حوته آياتها من الاعتبار والاتعاظ والتذكر، ففيها الإكسير الذي يمكن أن يكون له عظيم الأثر في حياة الأمة؛ إذا أخذت به كما أخذ به محمد ﷺ، وإذا تأثرت به كما تأثر السلف، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف: ١١١].

٢- ما حواه خبر يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن من أصول منهج الدعوة، والدعاة في مشارق الأرض ومغاربها بحاجة إلى التذكير بذلك المنهج.

٣- ما فيها من التلازم الشديد بين الشدة والفرج من أول السورة إلى آخرها، ونحن بمسيس الحاجة إلى بث الأمل في الأمة، ففي السورة دعوة للتفاؤل وحسن الظن بالله تعالى، والناس بحاجة إلى من يبث تلك الروح في نفوس كَسَر بعضَها واقعُ كثير من المسلمين.

٤- معالجتها لثالوث خطير؛ كل واحد من أقطابه مهلكة، وقد منعت السورة بمجموعها من دخولها: التنازل، والاستعجال، واليأس.

٥- بيان الثبات في منهج يوسف عليه السلام واطراده وعدم تذبذبه، من أول حياته، حتى آخر لحظات عمره، والدعاة وطلاب العلم، بل الأمة كل الأمة مطالبة بالاستقامة والاطراد على المنهج الصحيح، ويتأكد ذلك في هذه الظروف التي تُقلّب فيها رياح الفتن القلوب وتصرِّفها.



٦- بيان السورة لأهمية القصة وأثرها على حياة الداعي والمدعو، والحاجة تدعو لاستخدام هذا الأسلوب القرآني من قبل الدعاة وطلاب العلم والمصلحين.

٧- ما حوته السورة من دروس سلوكية وأخلاقية وتربوية ونَفْسِيَّةٌ مهمة.

٨- ما حوته من قواعدَ وأصولٍ في السياسة الشرعية، التي نفتقر إليها كثيرًا في هذا العصر: في الشورى، في التخطيط، في بعد النظر، في التعامل مع الكافر، في العدل، الذي هو أساس قيام الدول... وغير ذلك.

٩- نجد في السورة أيضًا قواعد وأصولًا في معالجة الأزمات، بل إدارتها، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة.

١٠- ما حوته السورة من بيان منهاج أهل الحق في الحكم على الرؤى.

١١- إشارة السورة الكريمة لمقومات النصر والتمكين، وأمتنا في أمس الحاجة لتأمُّلها والعمل بها؛ للخروج من هذه الهوة التي تردَّت فيها.

١٢- وأخيرًا، ما اشتملت عليه السورة من أغراض وموضوعات متعددة، وما تميزت به من خصائص ذكرها كثير من أهل العلم ويمكن الرجوع إليها في مصنفاتهم.





بين يدي السورة

اسم السورة ومناسبته:

اسمها سورة يوسف، ولا يعرف لها اسم خلافه، وبه سماها جماعة من الصحابة، وهذه السورة محورها قصة يوسف عليه السلام فهي أخص سور القرآن به، وهو أخص أنبياء الله بها، بل أخص مذكور فيها، فناسب أن تسمى باسمه.

عدد آياتها:

ذكر غير واحد أن سورة يوسف إحدى عشرة ومئة آية بلا خلاف[١].

وقت نزولها:

سورة يوسف مكية بالإجماع[٢]، نزلت بعد سورة هود عليه السلام وقد نزلت في فترة حرجة من تاريخ الدعوة في العهد المكي، بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى[٣]، حيث اشتد أذى قريش في هذه المدة على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم،

---

(١) نقل ذلك ابن عبد الكافي في «عدد سور القرآن» (ق ٤٥/ ب) عن موقع مخطوطات الأزهر، رقم المخطوط (٣٠٩٤٨٣) ، وكذلك أبو عمرو الداني في «البيان في عدِّ آي القرآن» ص٦٧.

(٢) ينظر «زاد المسير» لابن الجوزي، أول السورة، ٤/ ١٧٦.

(٣) صحح الحاكم أثرًا تعقبه الذهبي فيه، ينظر «المستدرك» ٤/ ١٦٥ (٧٢٤١)، وفيه إقراء رسول الله ﷺ رفاعة بن رافع، ومعاذ بن عفراء سورة يوسف، وكان ذلك قبيل مجيء الستة النفر من الخزرج، الذين كانت على أثر لقياهم بيعة العقبة الأولى. وينظر في خبر الستة قبيل العقبة الأولى «الروض الأنف» ٢/ ٢٤٥.

حتى إن النبي ﷺ أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فنزلت هذه السورة؛ تسليةً للنبي ﷺ ولصحابته، وتبشيرًا لهم بالفرج بعد الشدة، وبالتمكين بعد التضيق، كما حدث ليوسف عليه السلام.

سبب نزولها:

روى ابن حبان في «صحيحه»، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه: قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[يوسف:١]، إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف:٣][١]

فضلها:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ بها في الفجر(٢)، وفي حديث عبدالله بن شداد بن الهاد: قال: سمعت نشيج عمر بن الخطاب في صلاة الصبح وهو يقرأ من سورة يوسف وأنا في آخر الصفوف، يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، وتخصيصه رضي الله عنه لها في أطول الصلوات قراءةً، مُشعِرٌ بمزيد مزية لها عنده.

---

(١) «صحيح ابن حبان» ١٤/ ٩٢ (٦٢٠٩)، ورواه كذلك الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٧٦ (٣٣١٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد حسَّنه جمع من أهل العلم، كشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٤٠، وابن حجر في «المطالب العالية» ٤/ ١٢٦، وجمع من المعاصرين.

(٢) ينظر «موطأ الإمام مالك» ١/ ٨٢ (١٨٣)، و«صحيح البخاري» ٣/ ١٣٥٣ (٣٤٩٧)، و«مصنف عبد الرزاق» ١/ ٥٧٠ (٢١٦٩).

الحكمة من سوقها في مقام واحد:

تعددت أقوال أهل العلم في ذلك، ولعل أبرز الأقوال:

١- أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، كما رواه الحاكم في «مستدركه»، فنزلت مبسوطة تامة؛ ليحصل لهم مقصود القصص: من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها.

٢- وهو أقوى ما يجاب به: أن قصص الأنبياء إنما كررت؛ لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار للرسول ﷺ، فكلما كذبوا نزلت قصة منذرة بحلول العذاب، كما حل على المكذبين، وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك.



وقفة مع القصة في الوحيين

القصة أسلوب تربوي مهم، أَولاه القرآن الكريم عناية خاصة، فحفلت الكثير من سوره بعدد من القصص، بل سُميت سورة كاملة فيه بسورة القَصَص، والسنة المطهرة فيها عشرات القصص التي تعالج قضايا اجتماعية؛ مثل: قصة أم زرع وأبي زرع[1]. بل يعلق النبي عليه الصلاة والسلام على قصة موسى والخضر في سورة الكهف، فيقول: «**وَدِدنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما**»[2]، أي: ودَّ النبي ﷺ أن موسى عليه السلام لم ينه الموضوع في المحاولة الثالثة لعجيب خبرهما.

وهذه دعوة للدعاة والمربين، ليُولوا هذا الجانب عناية خاصة، شريطة **الالتزام بالضوابط الشرعية للقصص**؛ فيتجنب ما علم كذبه، ويسوغ الإخبار بما حكي ولم يعلم كذبه؛ لأجل أخذ العبرة، أو التنويه بمقصد شرعي صحيح دلت عليه الأدلة، شريطة أن لا يُصَدَّقَ وتُرَتَّبَ عليه الأحكام، ويتجنب كذلك ما لا فائدة فيه، وإن كان حقًّا، ولهذا فقد أعرض الله تعالى عن ذكر بعض التفاصيل والأخبار في قصص القرآن، بل في سورة يوسف عليه السلام مع طولها؛ وذلك لعدم الفائدة، فالتفصيل والإسهاب بما لا فائدة فيه قد يكون لغوًا في أحسن أحواله، وما فيه من الحكمة البالغة والعبر المعتبرة جم غفير، فحري الاشتغال به عما سواه.

---

(١) «صحيح البخاري» ٥/ ١٩٩٠ (٥٢٧٤)، و«صحيح مسلم» ٤/ ١٩٠١ (٢٣٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» ٤/ ١٧٥٧ (٤٧٢٥).



وفرع عن ذلك تجنب القصص التي يطنب فيها بعض أصحاب الأدب، وليست من الأدب في شيء؛ كقصص الغرام والحب، تلك الكلمة النبيلة التي شُوِّهت؛ إذ جعلوه شهوة وتعلقًا بصورة جسد. وربما يقحمون ما لا تعلق له بالموضوع إقحامًا! ويذكرون من التفاصيل ما لا فائدة فيه لمجرد المتعة، وإثارة الغرائز، وتأجيج الشهوات، بينما في سورة يوسف تنبيه على أسلوب ذكر ما يحسن ستره من حيث الأصل من تلك الأحوال فإن اقتضت الحاجة، نبه عليها بما لا يخدش الأدب، ولا يندى له جبين الحياء! كل ذلك في سياق أدبي عالي، وبيان رفيع بديع، تتقاصر عنه أقلام الثَّقَلَيْن! ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[يوسف: ٢٤].

وقد جاء ذكر القصص في القرآن لأغراض، أهمها:

أولًا: تثبيت النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، ومَنْ بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثانيًا: التأسي بالخيِّرين فيما يشرع التأسي بهم فيه، وتجنب طريق الهالكين من المغضوب عليهم أو الضالين.

ثالثًا: تسلية المؤمنين المصدقين، والترويح عن النفوس المكدودة بذكر أخبار الأمم الماضية، وهذا الغرض من جملة ما يبين وسطية هذا الدين واعتداله؛ فكما أن في تشريعاته الأمر والنهي، وفي أخباره الوعد والوعيد، فإن فيه التسلية والمتعة، والثقافة والفائدة، والترويح الطاهر البريء.

فأي كتاب أحسن نظامًا من هذا الكتاب العزيز؟ وأي سِفْر أجل وأنبل معانيَ منه؟ وأي خطاب أرفع لغة من خطابه؟ فلماذا لا يتسلى به وبأخباره الأدباء الألباء؟ وكيف تشبع منه العلماء؟





مكانة العقل في الإسلام

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢].

والإنسان بدون العقل يفقد فضله، ويذهب تكليفه. قال بعض الحكماء: الإنسان صورة فيها عقل، فإن أخطأ العقل ولزمته الصورة، فليس بإنسان! قال المتنبي:

لولا العقولُ لكان أدنى ضَيْغَمٍ   أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ

ولَمَا تفاضلتِ النفوسُ ودَبَّرَت   أَيدي الكُماةِ عَواليَ المُرّانِ

ولهذا عُني القرآن عناية كبرى بالعقل، فجاءت آيات كثيرة جدًا تحث على التعقل، سواء بلفظ العقل، أو بألفاظ مقاربة تدل عليه: كالتدبر أو التفكر وغيرهما، فكلها تشير إلى العقل مطابقة أو لزومًا أو ضمنًا.

ولا شك أن **العقل الممدوح** هو الذي يهدي صاحبه للعمل بمقتضى الحق الذي يعلم، وإلا فقد يكون الرجل ذكيًا وليس بعاقل، يعرف الحق ولكنه يركب هواه، وقد يكون الرجل عاقلًا وإن لم يكن ذكيًا متميزًا في القدرة على الاستنباط والاستخراج.

وقد سمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عن التصرفات غير المحمودة، وما أحوجَ الأمة اليوم إلى ذلك العقل، الذي يمنع من الاستعجال، كما يمنع من التلكّؤ في موضع العجلة، ويمنع من الإقدام على التصرفات غير المناسبة عمومًا، ويرشدها إلى سبيل استثمار طاقاتها الاستثمار الأمثل.

إن الموازنة بين العاطفة والعقل أمر مهم؛ فأمة بلا عاطفة أمة جامدة، لا تعرف قيم الحياة؛ ولكن الانسياق وراء العاطفة وحدها خطأ كبير جدًا، بل لا بد من توافق وتنسيق بين العاطفة والعقل والشرع؛ ويكون ذلك بإرجاع العاطفة إلى العقل، وإرجاع العقل إلى الشرع.

فمتى ما ضبط المرء عقله بلجام الشرع، صار العقل عقلًا شرعيًا محمودًا، يتجاوز حدود الدنيا القاصرة؛ لينطلق بصاحبه نحو الجنان.

أهم ما يُنمِّي العقل:

كما أن الجسم ينمو ويكبر؛ فكذلك العقل ينمو ويكبر حتى يبلغ الاستواء، ومن أهم ما ينمي قدرات الإنسان العقلية ما يلي:

أولًا: العلم: وهو من أكثر الوسائل فعالية في تطوير القدرات العقلية، ومن أهم ما ينمي العقل المكتسب بشقيه الإيماني الشرعي وكذلك الحياتي.

ثانيًا: التجارب: سواء التجارب الشخصية أو تجارب الآخرين، وهذه واحدة من الحكم التي لأجلها قصَّ الله علينا من أخبار الغابرين.

ثالثًا: الشورى: فالذي يستشير يضيف لعقله عقول الآخرين، ولو استغنى أحد عن الشورى، لاستغنى عنها محمد بن عبد الله ﷺ، ومع ذلك يقول له ربه جلَّ وعلا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

رابعًا: السن: والسن له أثره في تنمية العقلين: الغريزي والمكتسب، وخلقة الله اقتضت تدرج نمو العقل إلى أن يشتد كما يتدرج نمو البدن مع تقدم السن، وفي ذلك من الفوائد مناسبة العقل للبدن الذي يحمله!



أحسن القصص

يقول تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣].

بيَّن الله تعالى في هذه الآية أن أحسن الأخبار أخبار القرآن، وقد تضمن ذلك القِصَص، فكان هذا استهلالًا بليغًا بديعًا بارعًا لموضوع السورة، وذكر هذه الآية في هذه السورة إشارة إلى أنها من أحسن القِصص، وليست كقصص الدنيا التي قد تشابهها من بعض الوجوه.

لماذا كانت قصة يوسف من أحسن القصص؟

قال بعض العلماء: لأنها وردت متكاملة من أولها إلى آخرها في السورة نفسها، وقال آخرون: لاشتمالها على موضوعات متعددة، وأغراض متنوعة؛ فقد عالجت مسائل إيمانية وشرعية وسياسية وتربوية واجتماعية ودعوية، وغير ذلك؛ ولهذا كانت فيها كما قال الله: ﴿ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف:٧]، وذهب بعض أهل المعاني إلى أنها وصفت بذلك؛ لأن كل من ورد فيها كان مآله حسنًا وعاقبته طيبة[1].

ومن أسباب عدها من أحسن القصص: كونها من جملة قصص القرآن في سورة كسائر سور القرآن، لها تأثير في حياة الأمم؛ فمن عمل بما فيها من مقومات الفوز والنجاح، فاز وسعد، وآل أمره إلى خير.

(١) ينظر «تفسير القرطبي» للآية ٩/ ١٢٠.



وقال ابن سعدي ﷺ مشيرًا إلى سبب من أسباب عدها في أحسن القصص: «وذلك لصدقها، وسلاسة عبارتها، ورونق معانيها»، ثم قال ﷺ: «واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة؛ فمن أراد أن يكملها أو يحسنها -بما يذكر في الإسرائيليات، التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب- فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا»[1].

وإجمالًا: فإن قصص القرآن هي أحسن القصص؛ لصدق معانيها، وللحكم العظيمة المشتملة عليها، فضلًا عن التعقيبات القرآنية، والتوجيهات الربانية المصاحبة لها، فلا شك أن من أحسن القصص قصة يوسف، التي ناسب ذكر هذه الآية في صدرها.



---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٩٣-٣٩٤). ونحوٌ من هذا أشار إليه ابن كثير في «التفسير» ٢/ ٤٦٨.

المفسرون والإسرائيليات

قبل البدء في القصة، لا بد من وقفة مع الإسرائيليات، التي أسرف بعض المفسرين -رحمهم الله تعالى- في إيرادها في تفاسيرهم في سورة يوسف، وفي غيرها من سور الكتاب العزيز.

والأصل في هذه المسألة: أن **التشريعات والأحكام لا يجوز أخذها من غير آية محكمة، أو سنة قائمة**، أو ما تفرع عنهما مما دلَّا على حجيته. فالرجوع إلى الإسرائيليات، وأخذ حكم عقدي أو عملي منها، لا يجوز ولا ينبغي؛ وإنما أُذن لنا في التحديث عن بني إسرائيل دون أن نصدقهم أو نكذبهم، والتصديق والتكذيب يتعلق بما لم يصدقه شرعنا أو يكذبه، أما ما صدقه فنصدقه، وما كذبه فنكذبه، وفي الصحيح: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**»[1]، ولكن ليس المراد بالتحديث العمل بكتبهم؛ بل أخذ العبر والعظات، والاستفادة مما علمنا صدقه وصوابه، أو حله وجوازه في شرعنا، ولا يخفى أن أخبار الماضين وقصصهم قد تنطوي على فوائد، قد يحسن ذكرها في بعض الأحيان، شريطة ألا يتعدى ذلك إلى إحداث تشريع لم يرد في الكتاب أو السنة، شأنها شأن القصص التي تعرض في حياة الناس.



(١) البخاري ٣/ ١٢٧٥ رقم (٣٢٧٤).



الرؤى وأضغاث الأحلام

من مواضيع سورة يوسف عليه السلام موضوع الرؤيا، ونستطيع أن نقول: إن سورة يوسف هي سورة الرؤى، فقد ورد في القرآن ذكر سبع رؤى في ستة مواضع[1]: ثلاثة مواضع اشتملت على أربع رؤى جاءت في سورة يوسف، وهي قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]، ثم الموضع الثاني، وفيه رؤيتا صاحبي السجن اللذين ذكرا له ما رأيا، وكل واحد منهم رأى رؤيا غير التي رآها صاحبه، ثم جاءت الرؤيا الرابعة في الموضع الثالث من السورة، وهي رؤيا الملك.

والناس في موضوع **الرؤى بين إفراط وتفريط**، فهناك من بالغ في الاهتمام بالرؤى حتى بنى حياته عليها، وأخذ تشريعه منها، وهناك من قصر فيها فلم يلتفت إليها، والحق وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، وما عليه المسلمون المؤمنون من أهل السنة والجماعة هو المنهج الوسط الحق.

وفي السنة المطهرة عشرات الأحاديث التي تتناول الرؤى، وتظهر العناية بها، فمن ذلك أن النبي ﷺ كان يسأل أصحابه: «**من رأى منكم رؤيا ...**»[2]، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقترب الزمان**

(١) انظرها في الأصل «آيات للسائلين»، ص٦٧-٦٨، وفيه ذكر السبب في ترك عدِّ الرؤية التي في الإسراء.

(٢) كما في «صحيح البخاري» من حديث سمرة بن جندب ١/ ٤٦٥ (١٣٢٠)، ومسلم من حديث ابن عباس ٤/ ١٧٧٧ (٢٢٦٩).

لـم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءًا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل، ولا يحدث بها أحدًا»[1].

وهذا الحديث أصل عظيم في موضوع الرؤيا، وإثباتها، وأنواعها، وأقسامها، وكيف نتعامل معها.

أما المنهج الشرعي في التعامل مع الرؤى، فيعتمد على الرؤيا، وهي ثلاثة أنواع كما مرَّ في حديث أبي هريرة:

* **الرؤيا الصالحة**: لا تحدث بها إلا من تحب، وذلك لأسباب منها: منع التحاسد وما ينتج عنه من تدابر.

* **حديث النفس**: ومن علاماته أن يفكر المرء في أمر ما، ثم يرى في نومه ما يتعلق به، والموقف منه الإعراض عنه وعدم الانشغال به.

* **رؤية ما يُحزِن**: وهذا من تهاويل الشيطان، وعلى الرائي:

أولًا: يتعوذ بالله من شر ما رأى ومن شر الشيطان.

ثانيًا: ينفث عن يساره ثلاثًا.

ثالثًا: ينقلب على جنبه الآخر.

رابعًا: يقوم فيتوضأ ثم يصلي ما شاء الله.

خامسًا: لا يحدث بها أحدًا.

ومن عمل بهذا فلن تضره -بإذن الله تعالى- ومن لم يتمكن من عمل هذه الخمس، فليعمل بعضها، كأن ينقلب على جنبه، وأن يستعيذ بالله من شرها ومن شر

---

(١) رواه مسلم ٤/ ١٧٧٣ (٢٢٦٣).



الشيطان، والمهم ألا يُحدِّث بها أحدًا، فإنه يُخشى إذا حدَّث بها أن يكون لها أثر، فقد ورد في حديث أبي رزين: «**أن الرؤيا على رِجْل طائر، فإذا عُبِّرت وقعت**»[1].

يقول أبو سلمة رضي الله عنه كما في «الصحيح»: كنت أرى الرؤيا فتمرضني. قال: حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت أرى الرؤيا تمرضني؛ حتى سمعت النبي ﷺ يقول: «**الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يُحدِّث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره، فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثًا، ولا يحدِّث بها أحدًا، فإنها لن تضره**»[2].

إضاءات في الرؤى:

لا بد من مراعاة بعض الضوابط والمحاذير سواء عند رواية الرؤيا، أو طلب المعبر لها، أو تعبيرها، وفيما يلي تفصيلها:

أولًا: بالنسبة لقاصّ الرؤيا:

١- عدم اختلاق الرؤى لإضحاك الناس أو لفت الأنظار، فإن النبي ﷺ يقول: «**من تحلّم بحلم لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**»[3]. كذلك الزيادة في ما رأى بغرض تهويل الأمر أو غير ذلك يدخل في هذا الباب.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» ٤/ ٥٣٦ (٢٢٧٨-٢٢٧٩)، وقال: حسن صحيح، ورواه كذلك أبو داود ٢/ ٧٢٣ (٥٠٢٠) وسكت عنه، وابن ماجه ٢/ ١٢٨٨ (٣٩١٤)، والدارمي ٢/ ١٦٩ (٢١٤٨)، والحديث في «مسند أحمد» ٤/ ١٠-١٤، و«صحيح ابن حبان» ١٣/ ٤١٣-٤١٥ (٦٠٤٩) وما بعده، و«مستدرك الحاكم» ٤/ ٤٣٢ (٨١٧٥) ووافقه الذهبي على تصحيحه، ورواه جمع غيرهم، وصحَّحه جم غفير من المتقدمين والمتأخرين.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري ٦/ ٢٥٨٢ (٦٦٣٧)، ومسلم ٤/ ١٧٧١ (٢٢٦١).

(٣) رواه البخاري ٦/ ٢٥٨١ رقم٦٦٣٥.



٢- أن يعلم أنها قد تصيب وقد تخيب، وذلك لورود الاحتمال؛ ولهذا أوجُه تبيِّنه منها:

أولًا: احتمال عدم دقة رواية من رآها دون تعمد للكذب فيزيد أو ينقص، وقد ينسى وقد يتوهم، والمعبر يعبر حسب ما رُوي له، وهنا قد يقع الخطأ، وإن كان المعبر حاذقًا.

ثانيًا: قد يكون ما رؤي من حديث النفس أو وسواس الشيطان فاختلط الأمر على الرائي.

ثالثًا: قد تكون الرؤيا صالحة، والرائي صادق دقيق في روايته، ولكن المعبر ليس من أهل الحذق في التعبير أو ليس من أهل التعبير.

رابعًا: قد يكون المعبر من المعبرين الحذاق، ولكنه أخطأ في تعبير الرؤيا. والدليل على ذلك أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه، عندما عبر الرؤيا وسأل النبي ﷺ، قال له النبي ﷺ: **«أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا»**[1].

خامسًا: قد يكون التعبير صحيحًا، ولكن الخطأ في التنزيل على الواقع، وقد وقع بعض الصحابة رضي الله عنهم في هذا في رؤيا الفتح، فظنوا أنهم سيدخلون مكة في عام الحديبية، ثم اتضح لهم أنه لم يكن في ذلك العام، وإنما تحققت الرؤيا في عام بعده.

٣- عدم استعجال وقوع الرؤيا، فقد تقع بعد مدة تطول أو تقصر، ورؤيا يوسف عليه السلام ما تحققت إلّا بعد أمد بعيد، قدَّره بعض المفسرين بأربعين سنة، وقيل أقل من ذلك وهو أقرب.

٤- عدم عرض الرؤى إلا على من يحب وكذلك أهل التقى والصلاح والرأي الذين يلتمس عندهم تأويلها، دون غير هؤلاء ممن لا يعلم ما يكنون له،

---

(١) رواه البخاري٦/ ٢٥٨٢ (٦٦٣٩).

فضلًا عن الدجالين والمشعوذين الذين يستعينون بالشياطين في التأويل.

٥- على الرائي أن يعلم أن الرؤيا ليست من مصادر التشريع أو التلقي فلا تستحدث بها بدع، ولا تشرع بها أحكام؛ لأن الدين قد كمل، يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

٦- ومما ينبغي أن يعلمه الرائي أن رؤيا النبي ﷺ في المنام حق، وتلك بشارة للرائي، فقد جاء في حديث أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي**»[1]. ولكن ليس كل من ادعى أنه رأى رسول الله ﷺ يكون مصيبًا وإن كان صادقًا، فقد يغرر به الشيطان، فيتمثل بغير صورة النبي ﷺ لأنه لا يستطيع أن يتمثل بصورته ﷺ ثم يزعم أنه النبي، ومن لا يعرف صفات النبي ﷺ تنطلي عليه الحيلة.

٧- ومما ينبغي أن يعلمه الرائي أيضًا أن أغلب الرؤى الصالحة تكون واضحة قصيرة جلية، كالرؤى التي في سورة يوسف: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] تعبيرها: أحد عشر أخًا، والشمس والقمر أبوه وأمه، وهذا ما حدث، أما أن تتحول الرؤى إلى ألغاز وأسرار، ومسلسلات وحلقات، ففي النفس من صحة كونها رؤى شيء.

٨- **وأخيرًا**: لا مجال لمراجعة المعبر إذا عبر الرؤيا بخلاف الفتوى؛ لأن التعبير جله إلهام والاجتهاد فيه قليل، والمعبر لا يملك أن يغير التعبير، ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، أما الفتوى فقد يُراجع فيها المستفتَى إذا تبين أن المسألة لم تتضح له بشكل كاف، فيتغير الحكم تبعًا لذلك، والله أعلم.

ثانيًا: بالنسبة للمعبِّرين:

---

(١) رواه مسلم ٤/ ١٧٧٥ (٢٢٦٦).



١- عدم جعل تعبير الرؤى شغلًا شاغلًا، وكذلك عدم الإعراض عنه بالكلية، بل لابد من الاعتدال واستخدام مثل هذه الهبة الإلهية في الدعوة إلى الله تعالى كما كان يفعل يوسف عليه السلام.

٢- ألا يعبر للمسلم ما يحزنه إلا إذا كان في ذلك مصلحة راجحة، على أن يوجهه التوجيه المناسب.

٣- تعبير بعض الرؤى قد يكشف بعض الأسرار المتعلقة بالرائي، فلا يجوز للمعبر أن يحدث بها أحدًا إلا لمصلحة راجحة.

٤- هناك تلازم بين الرؤيا وتعبيرها وصاحبها، فتعبر بحسب حاله.

٥- التعبير باب من أبواب الفتنة؛ فليحذر المعبرون من استغلال ثقة الناس بهم فيسألونهم عن أسرار بيوتهم دون حاجة لذلك.

٦- تجنب التعبير في الإذاعات والصحف والإنترنت وسائر وسائل الإعلام؛ لما في ذلك من مفاسد ظاهرة.

٧- عدم الاستعجال في تنزيل الرؤى على الواقع.



دروس تربوية

المرجعية الأبوية والعلاقة الحميمة

* يوسف عليه السلام يرى رؤيا فيبادر بقصها على أبيه ولا يتردد ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ الآية، وهذا يشير إلى طبيعة العلاقة الحميمة بينهما.

التفاعل مع هموم الصغير

* فأولاها الأب النبي -وحسبك بالنبوة شغلًا- ما تستحقه من الاهتمام، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ فلا هو أهملها كما يفعل الكثيرون، ولا هو بالغ في الاهتمام بها والتحذير من عواقبها.

ليس كل حق تجدر إذاعته في كل وقت

*وفي تأكيد يعقوب على يوسف عليهما السلام على عدم قص الرؤيا على إخوته مصداق لما روي عن نبينا ﷺ وصححه بعض أهل العلم[1]: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**»، وإذا كان هذا قد يقع بين الإخوان، فوقوعه مع العامة أحرى، ومراعاته إذن أولى، ولاسيما إذا كانت الرؤيا متعلقة بآخرين حاضرين، والبعد عن أسباب الشر مطلوب، ولو بكتمان ما لا بأس فيه إن خشيت مضرته، وليس كل حق يصح أن يذاع ويعلن. وحري بنا أن نراعي أمورًا ربما كانت أجلَّ شأنًا من الرؤى.

تعليل النهي للصغير بحيث تظهر له الحكمة منه

* تلحظ في الآية أمرين: أن النهي جاء معللًا، وأن التعليل تعليل حكيم، وهنا إشارة لواجب الآباء في السيطرة على مشاعر أبنائهم بحسن التوجيه؛ لئلا ينشأ بينهم التباغض والتحاسد، وتوجيه إلى أهمية النهي المعلل، وتوجيه إلى أن تكون العلة علة حقيقية من الحكمة أن تقال.

---

(١) ينظر «السلسلة الصحيحة» للعلامة الألباني ٣/ ٤٣٦ (١٤٥٣).

إن النمط الجبري في التربية: افعل «وبس»! لم يكن يعرفه أعظم المربين ﷺ ، هاهو ذا يوجه ابن عباس بكلمات تلحظ الشبه بينها وبين كلمات يعقوب عليهما السلام هذه فيقول: «يا غلام، إني أعلمك كلمات...»[1]، وينهى الآخر الذي طاشت يده في الصحفة بأسلوب أكثر بلاغة وإبداعًا، فيقول: «يا غلام! سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكل مما يليك»[2]، فيالله أي معلم هذا! فلا غرو أن يقول ذلك الغلام بعد أن غدا شيخًا: «فما زالت تلك طعمتي بعد»[3]!

التوجيه بنداء يدعو للقبول

* استرعى يعقوب سمع ابنه يوسف عليهما السلام بعبارة حانية محببة يقول فيها: (يا بُنَيَّ) وقرأها شعبة رحمه الله (يا بُنَيِّ) بالترخيم الذي يزيد من حنوِّها ويضاعف وقعها في نفس الابن. وفرق بين أن تجذب انتباه من تريد توجيهه بعبارة تلفت انتباهه نحو ما تقول فيلتفت إليك بوجهه وعقله، وبين أن تجذب انتباهه بعبارة زاجرة تجعل جل همه التفكير فيما يخلصه من الصراخ أو الزجر أو التوبيخ، فيترك ما نهي عنه للحظة، ثم يعود بعد مدة؛ لأنه ما تنبه إلى الحِكَم والأسباب، وإنما كان همه التخلص من العبارة المرعدة المرعبة: يا ولد! أو يا ...!

وأنت تلحظ في هذا الأسلوب أمرين:

الأول: التصغير الدال على الشفقة والعناية وربما التعظيم، فالنداء بـ(يا بني) مشعر بنوع شفقة وحرص أبوي يناسب مقام النهي والتحذير، والسامع للعبارة يستشف منها معنى: أنت مني، ولذا أشفق عليك فلا تفعل.

والأمر الثاني: نسبته عليه السلام الابن إلى نفسه، وفي ذلك تنبيه الابن إلى معاني

---

(١) القرطبي: ٦/ ٣٩٨. الترمذي ح(٢٥١٦)،

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٣)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٥٣٧٣).



الأبوة في الكلام المقبل على تلقيه، فهو يعلم أن ما سيأتي بعدها أمر أبوي نابع عن قلب أب يفيض حبًا لخير أبنائه، فلذات أكباده، ويكره كل ما يسوؤهم، وطاعة مثل هذا الأمر أقرب من عصيانه.

فطنة المربي إلى سلوك المتربين

* قول يعقوب: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ فيه دليل على فطنته إلى تصرفات وسلوك بنيه، فلم يكن يعقوب عليه السلام سيّئ الظن، ولكنها فراسة المؤمن ومن أسبابها يقظته وفطنته، فهو يعلم أحوال أبنائه من حوله، ويستشف من تصرفاتهم شيئًا ربما وُجد في نفوسهم، ويعمل جاهدًا على ألا يستفحل الأمر فيخرج إلى نطاق لا يمكن تداركه، فتراه يقطع كل سبيل ربما قاد إلى تفاقمه.

استثمار الفرص لبيان العدو الحقيقي وترك التشاغل بأصحاب العوارض الزائلة

*وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فيه استثمار المواطن المناسبة لبيان العدو الحقيقي، وتوطيد بغضه، وعبَّر بالمصدر (عدو) فهو عدو بغَضِّ النظر عن الزمان أو المكان، وليست عداوته عداوة خفية، بل هي عداوة بينة جلية.

* ثم أراد يعقوب أن يخرج ابنه مما أسميه بالاستغراق في اللحظة الحاضرة إلى ما ينتظره من مستقبل مشرق، فقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾[يوسف:٦]. هل يُتصور بعد ذلك أن يجلس يوسف عليه السلام يفكر في مكيدة إخوته أو ينتقل بفكره إلى هذا الخير المقبل عليه من اجتباء الله جلَّ وعلا له وإتمام نعمته عليه؟ فإذا رأيت إنسانًا شغله هم، أو ملأ صدره غم، فذكِّره بأن الله قريب لطيف مجيب، وقل له:

المنع من الاستغراق في اللحظة الحاضرة

وراء مضيق الخوف متَّسع الأمنِ	وأول مفروح به آخر الحزنِ
فلا تيأسن فالله ملَّك يوسفًا	خزائنه بعد الخلاص من السجنِ



بث الأمل في النفوس المكروبة

ونبينا ﷺ كان يسلك هذا المسلك التربوي المهم؛ ففي الحديبية اشتد الأمر على الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- فلما رأوا سهيل بن عمرو قادمًا قال لهم ﷺ: «**قد سَهُلَ لكم من أمركم**»[1].

وفي الخندق لـمَّا زاغت أبصار الأصحاب من شدة الكرب، وبلغت قلوبهم الحناجر، وزلزلوا زلزالًا شديدًا كما وصفهم العليم الخبير في القرآن الكريم، في تلك الحال والعدو من فوقهم ومن أسفل منهم يضرب النبي ﷺ الصخرة الصَّلدة التي كسرت حديدهم واستعصت عليهم ويكبر تكبير فتح ثم يبشرهم بالظهور على كل القوى العالمية في ذلك الوقت: فارس والروم[2].

من الفروق بين بث روح التفاؤل والتخدير بالأوهام غير الواقعية

ومن المقرر المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، ولم يكن يبشر الناس إلا بوحي يوحى. وليس مطلوبًا منا اليوم أن نرجم بالغيب ولا أن نبشر الناس بما لا علم لنا به، بل إن ذلك من جملة التخدير والتخذيل بالميل إلى الطرف الآخر، لكن المطلوب أن نبشر الناس بما ورد في السنة الصحيحة، والأخبار الثابتة التي ضعف إيمان بعض الناس بها، وكثير من الأمور يمكن التنبؤ بها -على تغليب الظن- من خلال قراءة الأحداث، فلنبشر الناس وحالنا ينطق باليقين بنصر الله ما نصرناه، كما أيقن محمد ﷺ.

احترام عقول الأطفال وشخصياتهم

* يعقوب عليه السلام كان يحترم عقول أبنائه فوجه هذا الخطاب لأحدهم بأسلوب فيه تقدير ظاهر لشخصه، وهنا قضية مهمة تتعلق بنظرة بعض الناس إلى الأطفال: إن كثيرًا من الفضلاء بلهَ عامة الناس يظنون أن الأطفال لا يفهمون فيعاملونهم بناء على هذا الظن الآثم، مع أنهم يعلمون من حوادث واقعهم أن

(١) كما في البخاري ٢/ ٩٧٤ (٢٥٨١)، وينظر «الفتح» ٥/ ٤٠٤.

(٢) ينظر: الطبري٢١/ ١٣٤، وهو في مسند أحمد ٤/ ٣٠٣، وينظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢١.



الواحد منهم قد يصف حدثًا وقع وهو ابن ثلاث سنين بتفاصيله، بينما إذا كبر فربما عجز عن تذكر ما حدث له بالأمس.

منهج النبي ﷺ في إكرام الأطفال وتقديرهم

وهكذا كان نبينا الكريم ﷺ، كان يكرم الأطفال ويقدر إمكاناتهم، فكان يكني بعضهم[1]، ويؤاكل بعضهم[2]، ويسلم إن مر عليهم[3]، ويواسي بعضهم لما مات عصفوره[4]، ويردف بعضهم[5]، بل يستأذن أحد الغلمان وكان يجلس عن يمينه في سقيا الأشياخ[6]، فلما لم يؤثرهم على نفسه أعطاه القدح مباشرة؛ لأنه ﷺ لم يستأذنه استئذانًا باردًا من قبيل المراسيم العصرية، أو الإجراءات الدورية (الروتينية) وإنما استأذنه؛ لأنه يعلم أنه صاحب الحق في إيثار غيره أو عدم إيثارهم حتى ولو كان المستأذِن رسول الله ﷺ، ولو كان هؤلاء هم أشياخ الصحابة رضي الله عنهم ، وليعلِّم الناس كذلك كيف يعامَل الصغار، ثم هب أن هذا لم يحدث في المجلس فإن في مجرد جلوس الغلام إلى جانب رسول الله ﷺ في مجلس فيه أشياخ الصحابة أمر حري الوقوف عنده، والتأمل فيه.

* الشاهد أننا نخطئ في تقييمنا للأطفال، فلا نعاملهم معاملة تناسب عقولهم، بل يشعرهم البعض بأنهم لا وزن لهم، فتكون النتيجة تخريج نوعين من الشباب: شباب يعاني من هزيمة نفسية، يستصغر نفسه ويقلل من شأنها ويقيد

---

(١) حديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير»، البخاري٥/ ٢٢٧٠(٥٧٧٨).

(٢) حديث: «يا غلام سمِّ الله»، البخاري٥/ ٢٠٥٦(٥٠٦١).

(٣) ينظر «صحيح البخاري» ٥/ ٢٣٠٦ (٥٨٩٣)، ومسلم ٤/ ١٧٠٨ (٢١٦٨).

(٤) حديث أبي عمير السابق.

(٥) «المستدرك على الصحيحين» ٣/ ٦٢٣ (٦٣٠٣).

(٦) البخاري٢/ ٨٣٤ (٢٢٣٧).



الثمرة المرّة لإهمال تقدير الأطفال

نفسه بحبال وهمية نسجها المجتمع من حوله، وشباب آخر متهور يحاول أن يتفلت من كل قيد ليثبت أنه رجل ولو بكل سبيل منحرف!

وبالمقابل من يقدر عقول أطفاله ويحترم قدراتهم ويخاطبهم خطاب الكبار فما أسرعهم إلى فهم كلامه والتزام توجيهه والتهيؤ لحمل المسؤولية في عمر الشباب، ومثل من حظوا بهذا المنهج في التربية قل أن تظهر فيهم أعراض الطفولة المتأخرة التي نشهدها في كثير من رجال عصرنا!

التربية على الأخذ بالأسباب مع الحذر

* نلحظ كذلك تنبيه يعقوب لابنه يوسف -عليهما السلام- للأخذ بالأسباب، فعدم رواية الرؤيا لإخوته مانع من أزّ الشيطان لهم فيكيدوا له، وبقية أحداث القصة تبين أن تربية يعقوب عليه السلام قد آتت أُكلها، فابنه قد أخذ بالأسباب في كل ما مر به من مواقف كما سنرى بإذن الله تعالى.

التربية على الاعتراف بالآلاء لمُوليها

* ومن فوائد يعقوب عليه السلام التربوية حرصه على تربية ابنه على رد الفضل لأهله، فقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦] فالله هو الذي اجتباه، وهو الذي اصطفاه، وتلك نعمة من أعظم النعم تدفع حلاوتها كل سوء جاء به ابتلاء، وقد رُوي عنه ﷺ أنه قال عندما أصابه الهم المقيم المقعد: «**إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ...**»[1].

* ومنها حرصه على ربط ابنه بآبائه الصالحين، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦]، والمعروف أن عمق الإحساس بالانتماء لمجتمع معين هو من دوافع الالتزام بعرف

---

(١) أثر مشهور ضعفه بعض أهل العلم، ينظر «السلسلة الضعيفة» للألباني ٦/ ٤٨٦ (٢٩٣٣).



توثيق الصلة بين الابن وبين آبائه الصالحين

ذلك المجتمع، ويبدو أن هذا الأسلوب كان من ديدن يعقوب عليه السلام مع كل أبنائه؛ ولذا لما حضرته الوفاة وسأل أبناءه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]، فأكَّدوا التزامهم بالسير في طريق هؤلاء الآباء الصالحين، الذين طالما حثهم على اقتفاء أثرهم، وتوطين مواطن أقدامهم.

أثر تعريف الطفل بأسماء الله وصفاته

* ومن الفوائد التربوية قول يعقوب عليه السلام لابنه بعد أن بين له فضل الله عليه باصطفائه له، وتعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦]، وفي هذا تعريف له ببعض أسماء الله تعالى وصفاته. وعندما تستقر هذه المعاني في نفس الصغير، فإنه سيتذكر عند كل ابتلاء أن الله تعالى الذي أحبه فاصطفاه هو الأعلم والأحكم، وأن ما يمسه من بلاء إنما هو بعلمه وحكمته تعالى، فتطمئن نفسه ولا يلتجئ لغير العليم الحكيم.

تنمية الشعور بالمسؤولية عن طريق التذكير بتعدي أثر العمل

* ومن الفوائد التربوية تنشئة الأولاد على أن إساءة أحدهم قد لا تضره وحده بل قد تتعداه إلى بقية جسد الأسرة، كما أن إحسانه كذلك، فمن نزلت به النعمة تعدَّى أثرها لآله وذويه، وكذلك من حلت به النقمة؛ ولهذا قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦]، وقد تمت النعمة ليوسف عليه السلام فتعدى أثرها آل يعقوب جميعًا، كما أن البلاء الذي نزل به تعدى أثره لذويه. وهذا التوجيه يشعر الطفل بالمسؤولية ويُنشِّئه على تحملها.





نتائج المقدمات الفاسدة

المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة

* المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة، فإخوة يوسف افترضوا أن أباهم في ضلال مبين، وأنه يحب أخاهم أكثر منهم رغم أنهم عصبة، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ثم تصرفوا بناء على هذا التصور ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، ولو فرضنا جدلًا خطأ يعقوب عليه السلام في حبه لأحد أبنائه حبًا يفوق حبه للآخرين، لم يكن ذلك ذنبًا للمحبوب أو مسوغًا لعقوبته، والنتيجة أنهم ندموا ندمًا عظيمًا، فلم يخلُ لهم وجه أبيهم كما افترضوا، ودفعوا نتيجة فعلتهم، والله ﴿..لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

خطورة الحسد والحذر منه

* لقد أساؤوا الظن فداخلهم شيء من **الحسد ذلك الداء العضال القتّال**، فالحسد نكد في الدنيا وخسارة في الآخرة؛ ولذا جاء النهي عنه صريحًا واضحًا: «**ولاتحاسدوا**»[1]، بل قال ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد**»[2]، وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «**دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا**

(١) متفق عليه من حديث أنس، البخاري ٥/ ٢٢٥٣ (٥٧١٨)، ومسلم ٤/ ١٩٨٢ (٢٥٥٨)، وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أيضًا.

(٢) رواه النسائي في «سننه» من حديث أبي هريرة ٦/ ١٢ (٣١٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» ١٠/ ٤٦٦ (٤٦٠٦)، ورواه غيرهم، وحسنه غير واحد من أهل العلم.

أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم، أفشوا السلام بينكم»[1].

* لا جناح على المرء أن يحب أحد أبنائه أو إحدى زوجاته حبًا يفوق حبه لبقية أبنائه أو زوجاته ما لم يتسبب هذا الحب في ظلم الباقين. ويعقوب عليه السلام لم يظلم بقية أبنائه، وحاشاه، وهنا يحسن التنبيه إلى مسألة مهمة: إذا أحبَّ أحدٌ ابنًا له حبًا خاصًا، فعليه أن يركز على أن سبب الحب هو الصفة التي تحلّى بها هذا الابن لا شخصه؛ حتى يتنافس الأبناء في تحقيق هذه الصفة، كأن يكون بارًا بوالديه، أو فيه صلاح أو تفوق أو غير ذلك، ومثل هذا الكلام يمكن أن يقال كذلك عند تعدد الزوجات، مع الحرص على العدل لوجوبه.

ضابط تقديم بعض الأهل في المحبة

ولكن على الآباء مراعاة مشاعرهم **فلا يظهروا حبًا جمًا زائدًا لأحد الأبناء دون البقية**، فإن الإخلال بذلك ولو عن غير قصد ربما ولَّد إحنًا ونجمت عنه عداوات، والصغار يلحظون من ذلك ما لا يلحظه الكبار، فلا تعزب عنهم البسمة، ولا تغيب النظرة، ولا يُغفِلون الكلمة، فضلًا عن المداعبة والقبلة.

خداع النفس بأذنب وأتوب

* وفي قوله تعالى خبرًا عن إخوة يوسف: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾، بيان أن إخوة يوسف قد علموا أن ما عزموا على فعله ذنب، وأنهم قد عقدوا العزم على التوبة منه بعدُ، فلم يكن ذلك مُسوِّغًا لفعلهم، فمن يقول: أعمل المعصية ثم أتوب، فقد أخطأ، وما يدريه أيعيش حتى يتوب أم تقبض روحه وهو على معصيته، وما يدريه هل ييسّر الله له أسباب التوبة وقبولها أو لا؟

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» ١/ ١٦٤ (١٤١٢)، ١/ ١٦٧ (١٤٣٠)، والترمذي في «سننه» ٤/ ٦٦٤ (٢٥١٠)، وكذلك الطيالسي في «مسنده» ١/ ٢٧ (١٩٣)، وأبو يعلى ٢/ ٣٢ (٦٦٩)، ورواه غيرهم وقد حسنه بعض أهل العلم.

المقدمات الفاسدة
توقع في جملة أخطاء

* كان المقترح الأول التخلص من الأخ بالقتل، أو بالطرح في أرض فلاة، ثم: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، فما اقترحه هذا الأخ يشعر بفضله عليهم، ولا يرفع عنه نصيبه من الذم، فقال ما حاصله: إذا كنتم تريدون أن يخلو لكم وجه أبيكم، فلا يلزم أن تقتلوه ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، فهو معهم في أصل المسألة مخالف لهم في وسيلتها، وذلك لا يرفع عنه الذم مطلقًا.

من شؤم الذنب تتابع الذنوب بعده

* ومن المعاصي التي وقعوا فيها بسبب مقدمتهم الفاسدة قولهم الذي قصه الله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف:١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:١٢]، وفي هذا دليل على إصرارهم وإجماعهم الأمر على جعله في غيابة الجب، وتلك معصية تضمنت العزم على قصد السوء، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية النبي.

ثم لـمَّا شرعوا في تنفيذ المؤامرة عمدوا إلى وسيلة محرمة وهي الحيلة غير المشروعة، وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ليس كذبًا مجردًا منهم، بل هو مبالغة في الكذب، وأكدوه بعد ذلك بمثله فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وجعلوا بينهما كذبًا آخرَ وهو قولهم: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وإنما هو: يؤخذ ويُلقى.

ثم قالوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ فلو صح هذا



لكانت مخالفة لما نهاهم عنه أبوهم، ثم رتبوا على هذا الكذب كذبًا آخرَ فقالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، افتراء حتى على الحيوان! وكذب بعده وهو قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ فهذا حاصله: وإنا لصادقون، فهو نوع من تأكيد دعواهم.

ثم كذب آخر ذكره الله تعالى فقال: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: مكذوب، ثم ذنب آخر، وهو ما اختلج في نفس يعقوب من ألم الحزن، المستوجب للصبر، وقد صرح بلازمه فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وقد ضرب به المثل فصار يقال: حزن كحزن يعقوب. فكل هذه ذنوب جر إليها سوء الظن المنبني على مقدمات فاسدة، ولعل هذه من النكت في جمعهم الذنوب بَعدُ: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩٧].

فالحذر الحذر من شؤم الذنب، والبِدارَ البِدارَ بالتوبة منه، وإلّا فإن الذنب الواحد قد يستتبع أرسالًا من الذنوب ولا يقولن أحد: أذنبُ وأتوب.

مشروعية اللعب الخالي من المحرمات

* ومن الفوائد في قوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[يوسف:١٢]، وقد ثبت بأدلة شرعنا جواز اللعب المباح الخالي من المحرمات. أما كثير من الألعاب الموجودة اليوم وما يصاحبها من محرمات واختلاط، أو من ميسر وأشباه الميسر، من الأمور التي تربي الصغار على الميسر والقمار، فهذه لا تجوز. كما أن بعض الألعاب الحاسوبية[1] تزرع في عقول الأبناء عقائد باطلة مثل تناسخ الأرواح، وتعودهم على رؤية المناظر الخليعة، وتربيهم على الكسل والتعدي على الآخرين؛ لأن أبطال الألعاب يصلون إلى أهدافهم

(١) ما يسمى (Play Station) أي: محطة اللعب... وغيره.



عن طريق قدراتهم الخارقة دون بذل أي مجهود، وهي كذلك لص من لصوص الوقت المهرة، وكل سبب من هذه الأسباب ينبغي أن يكفي لدفع الآباء للتفكير مرارًا قبل أن يشتروها لأبنائهم الذين استرعاهم الله إياهم، ولا شك أن التفريط في مثل هذا غش للرعية، وفي الحديث: «**لا يسترعي الله عبدًا رعية يموت حين يموت وهو غاش لها إلا حرّم الله عليه الجنة**»(1).

الصبر الجميل على الأبناء

* ومن الفوائد تلك الكلمة العظيمة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨] التي كانت شعارًا ليعقوب عليه السلام، فلما فقد ابنه يوسف عليه السلام قالها، ولـمَّا فقد اثنين آخرين من أبنائه ما زاد عليها. لقد كان يعلم أن أنفُس أبنائه قد سوّلت لهم أمرًا، ومع ذلك لم تستغرقه اللحظة الحاضرة، فلم يشتمهم، أو يضربهم، أو يطردهم، بل صبر عليهم، واستعان بالله تعالى في معالجة الموقف وحل المشكلة وهو نعم المعين.

وهذا الموقف يجب أن يستحضره الآباء الذين يستعجلون في تشديد العقوبة على أبنائهم وطردهم لوقوعهم في خطأ ما، فيتلقفهم أصحاب السوء، والنتيجة انحراف الأبناء ووقوعهم في جرائم ربما ما كانت لتخطر على بال أحدهم لو بقي في بيت أبيه، يحوطه برعايته، ويسدده بتوجيهه.



---

(١) البخاري ٦/ ٢٦١٤ (٦٧٣٢)، ومسلم ١/ ١٢٥ (١٤٢) و٣/ ١٤٦٠.

من البئر إلى القصر

تتابع فضل الله وآلائه على يوسف

* من فضل الله على يوسف عليه السلام أن الذي اشتراه هو عزيز مصر، فلم يشتره رجل يهينه ويذله ويستخدمه ويبتذله للكسب ولم يجعله خادمًا في البيت، بل أوصى به زوجته خيرًا: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

* على نقيض العزيز الذي حباه الله فراسة توسَّم بها في يوسف النفعَ، كان أولئك الذين أخرجوه من البئر وباعوه بأبخس الأثمان.

تنبيه الآباء والمربين على أهمية التعرف على النجباء

ويحسن في هذا المقام تنبيه الآباء والمربين على أهمية التعرف على النجباء والمتميزين من أبنائهم وتلاميذهم، بل على معرفة صفات وقدرات كل واحد منهم، فيعاملونهم بما يناسب حالهم دون محاباة لهم، أو ظلم لغيرهم، فربما يكون منهم قائد، أو مجدد، أو عالم. وقد كان عمر يدعو ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لِـمَا يدعو له أهل بدر؛ لأنه توسّم فيه النجابة مع أن سنّه دونهم.

أنواع التمكين وتحصيل يوسف عليه السلام لها

* ولا يزال لطف الله بعبده يتتابع فقال سبحانه واصفًا ما بلغه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، والتمكين نوعان: تمكين خاص، وتمكين عام، وليتحصّلا ليوسف عليه السلام مكنه الله تعالى في أول الأمر من قلب العزيز، وفي الآية إشارة إلى أن دخوله بيت العزيز وما لقيه فيه من إكرام كان مبدأ تمكينه في أرض مصر، والتمكين العام بالولاية العامة عندما قال الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ...﴾ [يوسف:٥٤-٥٦]، فأصبح هو عزيز مصر الآمر الناهي.

أهمية الثقة بالله وحسن الظن به

* ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، وهذا هو سر المسألة، **أفلا يثق بالتيسير والتفريج**، أفلا يثق بالتمكين والتأييد، من كان هواه تبعًا لمراد الله الغالب على أمره، اللطيف بعباده، الناصر لأوليائه؟

إننا بحاجة لاستحضار هذه المعاني لنطرد اليأس والتشاؤم من القلوب بعدما تكاثرت جراحات الأمة. لقد تعرضت أمة الإسلام على مدار التاريخ لكيد الأعداء، وكان سبيل النصر في كل مرة من تلك المرات الاستمساك بحبل الله، والثقة بوعد الله، والتوكل على الله، والأخذ بأسباب الانتصار، وهذا هو السبيل الوحيد لأمتنا اليوم إن أرادت التغلب على عدوها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ [الطلاق:٣].



قصة العفة

سمو أسلوب القرآن عند الحديث عن الفاحشة

* قصص القرآن تعالج ما يعايشه الناس وتذكِّر بأخبار من غبر حتى يأخذ من حضر العبر، فلا بأس إذًا من سرد أضرب قصة امرأة العزيز ولكن بمنهج القرآن، دون بذاء أو تفصيل ودون تعرض لِـمَا لا طائل من ورائه، ولا فائدة من ذكره، إلّا عند ذوي النفوس المريضة بفتن الشهوات، التي يطربها سماع القذع والفحش وأخبار التهتك والمجون وتعدي الحدود والحرمات.

* قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ومما يلحظ هنا ابتدار المرأة المراودة التي: هي المطالبة برفق، وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم مما ينبغي أن تكون عليه امرأة العزيز، إلّا أن يوسف استعصم مع داعي النفس والهم، وحري بمثل هذا أن يبدله الله خيرًا مما تركه له، وحري بغيره إذا دعاه داعي الهوى أو النفس والشيطان أن يتذكر موقفه عليه السلام.

ما يُروى من الإسرائيليات في همِّ يوسف

* ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، ومما يحسن التنبيه إليه في هذا الموضع هو ما انساق إليه بعض المفسرين من سوق أساطير بني إسرائيل في تفسير هذه الآيات وبيان تفاصيل أحداثٍ ما عاصروها، بل لو عاصروها ما شهدوها، وزعموا أن يوسف عليه السلام كاد أن يقع في المنكر لولا أن رأى برهان ربه، وكثير مما قالوه فِرى مردودة ظاهرة الرد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾[يوسف: ٢٤]، والفحشاء الوقوع في



الفاحشة، والسوء دون ذلك، والله تعالى صرفهما عنه. وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ...﴾[يوسف:٥٣]، فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن.

ولأن الله وصفه بالإحسان والإخلاص، والذي يعبد الله كأنه يراه لا يقع فيما ذكروه، كما أنه ما من نبي ذُكر له ذنب في القرآن إلا وذكر استغفاره، ويوسف عليه السلام لم يذكر في القرآن أنه استغفر من ذنب، وهذا دليل على أنه همَّ بقلبه دون فعل إذ عناية الله سبقت فرأى برهان ربه، وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرفه الله به عما كان هم به، وهو غير مؤاخذ بذلك.

* يُستشفُّ مما جاء في القصة أن البيئة التي عاش فيها يوسف عليه السلام في بيت العزيز كان فيها من الميوعة والانحلال ما يجعل الرجل يرى امرأته تلاحق فتى في بيته ثم لا يفعل شيئًا غير تقرير أنها مخطئة، ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾، ويجعل المرأة تجهر بمثل هذه الفعلة بل وتكررها في الملأ.

خطر الخلوة والاختلاط بالنساء

* ومن وسائل العفة التي تزرعها هذه الآيات في النفوس تعظيم خطر الخلوة والخلطة بالنساء الأجنبيات، فانظر إلى أي مدًى بلغ الحد بامرأة العزيز؟ وصدق من قال: إن الخلوة خطر يجب اتقاؤه؛ لأنها دعوة للشيطان وسبيل للغواية، قال النبي ﷺ: «**ألا لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(١).

(١) «المستدرك على الصحيحين» ١/ ١٩٧ (٣٨٧)، وهو في «صحيح ابن حبان» ١٠/ ٤٣٦ (٤٥٧٦)، وغير موضع، والحديث رواه جماعة، قال ابن كثير: له طرق أخر، وهو حديث مشهور جدًا [إرشاد الفقيه ٢/ ٤٠١]، وصحح ابن حجر إسناده في «هداية الرواة» ٥/ ٣٨٨، وقد صححه جمع من أهل العلم، وكذا الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» ١/ ٢/ ٧٩٢ (٤٣٠).



والإسلام حرم الخلوة وشدد في ذلك؛ ليغلق منافذ الشر، فإن العبد وإن كان خيِّرًا لا يحدث نفسه بالحرام، عليه ألا يحوم حول الحِمى مخافة أن يرتع فيه، وألا يخالط الريبة مخافة أن يجسُر. وقد تساهل الناس في هذا الزمان في الخلوة بالأقارب، مع أن النبي ﷺ بالغ في التحذير من الخلوة بهم فقال: «**إياكم والدخولَ على النساء**» فقال رجل: أفرأيت الحَمْوَ؟ قال: «**الحَمْوُ الموتُ**»[1].

والأدهى من ذلك خلوة الخدم والسائقين بالأبناء والبنات، فالبعض يتعامل معهم كما لو كانوا آلات، لا عقول لهم، ولا رغبات، ولا نزوات، والنتيجة ما نسمعه من رجال المؤسسات الاجتماعية والهيئات.

الفرار من مواطن الريبة

* ومن وسائل العفة المذكورة في الآيات الفرار من مواطن التهمة ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾، والفرار يقتضي تجنب أسباب الفتنة، فإن عرضت، فعلى المرء بذل جهده للنجاة منها.

الحب إذا تجاوز الحد أضر بالمحب والمحبوب

* وفي هذه القصة بيان أن الحب إذا تجاوز الحد أضر بالمُحِبِّ والمحبوب، فالحب إن زاد ولم يُداوَ دواءً شرعيًا بالزواج، أو قطع أسبابه، وشغل النفس بما هو أنفع، عاد ضررًا على صاحبه، وعلى محبه، وربما على غيرهما، وقد كان حب امرأة العزيز ليوسف من هذا القبيل.

الخلاص في الإخلاص

* ومن فوائد هذه الآيات بيان أن الإخلاص مما يُكسى به العبد ثوب العفة، وبه ينجَّى من الفتنة، وبهذا نجَّى الله تعالى عبده يوسف عليه السلام من هذه الفتنة العظيمة؛ لأنه كان عبدًا مخلَصًا، ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤] خلَّص قلبه من الشرك ومن اتباع الهوى، فخلَّصه الله تعالى بفضله من الفتن.

---

(١) البخاري: ٥/ ٢٠٠٥(٤٩٣٤) وغيره، ومسلم ٤/ ١٧١١ (٢١٧٢) من حديث عقبة ابن عامر رضي الله عنه.

فالإخلاص والتوحيد من أعظم أسباب العصمة من الفتن، والنجاة من الشهوات والشبهات، وتحقيقه كافل العفة، ضامن السلامة والعصمة. ومن كمال تحقيقه حفظ أوامر الله ونواهيه.

الإحسان سبب لفتح أبواب الخير للعبد

* ومن فوائد الآيات بيان أن الإحسان -الذي وصف به يوسف عليه السلام - سبب لأبواب خير تفتح على المحسن، كما أنه سبب من أسباب إيصاد أبواب شر قد تتهدد المرء، ولا يظنن ظانّ أن معنى الإحسان هو بذل المال لمن يحتاجه وحسب، كلا، بل هو معنى أوسع من ذلك وأشمل. ففي الحديث لـمَّا سأل جبريل النبي ﷺ أن يخبره عن الإحسان، قال له النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»[1]. والذي يعبد الله كأنه يراه لا يُقدِم على أيّ تصرف مهما صغر حتى يعرف أين هو من مرضاة الله ثم يُقدم أو يحجم.

ويوسف عليه السلام كان محسنًا، بل لم يملك أحد ممن رآه وتعامل معه إلا أن يصفه بذلك: وُصف بالإحسان وهو بين جدران السجن، ووصف به وهو القيِّم على خزائن الأرض، المتحكم في بيت المال، فلم يكن الإحسان صفة عارضة تكلَّفها لضعفه أو حاجته، لكنه كان خلقًا ضرب بجذوره في أعماق قلبه فاصطبغت حياته كلها به، حتى عند قدرته على إخوته، لم يخرج عن عادته وسجيته، فقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢].

وفي هذا المقام من قصته كان إحجامه عن مطاوعة امرأة العزيز إحسانًا لنفسه بحفظها عن الموبقات، وإحسانًا للمرأة بعدم الاستجابة لها، وإحسانًا للعزيز بصيانة عرضه.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري ١/ ٢٧ (٥٠)، و٤/ ١٧٩٣ (٤٤٩٩)، ومسلم: ١/ ٣٦ (٩) وما بعده، وأخرجه كذلك مسلم عن عمر.

التراضي بين الطرفين على الفاحشة لا يحلها

* التراضي بين الطرفين عند فعل الفاحشة لا يخرجها من دائرة الحرمة، ولا ينفي عنها صفة الظلم مثلما يعتقد الناس في الغرب وفي البلاد التي لا تسترشد بنور الإسلام. فالظلم حاصل مع التراضي أولًا: لأن الذي خالفا أمره هو الله تعالى، وثانيًا: لإهلاك نفسيهما بالوقوع في الحرام، وثالثًا: لتعديه على آخر ولو برضاه، ورابعًا: لما ينجم عن هذه العلاقة من آثار اجتماعية سيئة بين الناس الموجودين، وقد تنسحب على من قد يوجد جراء تلك العلاقات لو فتح لها الباب! وكل ذلك ظلم لا يجوز.

* الذي يظهر أن يوسف عليه السلام أراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف:٢٣] عزيز مصر الذي قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١]، وإنما قال لها يوسف ذلك؛ ليبين لها شناعة فعلته لو استجاب لها، إذ كيف يتعدى على عرض من أحسن إليه، وهذا هو الدرس المقصود فإن الإحسان يُحفظ به الإنسان، ويُكافأ عليه ولو كان كافرًا في الدنيا.

* فالإحسان إلى الخدم ومن هم في حكمهم سبب في وفائهم وحسن أدائهم. وقد قال بعض أهل الأدب: لم تقل العرب قط بيتًا في الإحسان أصدق من قول الحطيئة:

من يفعلِ الخير لا يعدم جوازيَهُ ... لا يذهب العُرف بين الله والناسِ

* ومن دروس العفة في هذه القصة والتي ينبغي أن تُعَى هو أن يوسف عليه السلام لم يسعَ للفتنة كما يفعل بعضهم في زماننا هذا، بل هرب منها لـمَّا وقعت؛ لذلك كتب الله تعالى له النجاة منها.

وهروبه منها أخذٌ بالأسباب، ولأنه استعصم بالله تعالى وأخذ بما بين يديه من أسباب قيض الله تعالى له فرجًا عاجلًا، فلقيا العزيز عند الباب، فاضطرت

المرأة لأن تكفّ عن ملاحقته، ثم كانت ملاحقتها وقَدُّ قميصه سببًا في الفرج الآخر لـمَّا بَـهَـتَـته، إذ تبين بالبرهان الدامغ أنه كان ضحية ولم يكن جانيًا رغم أن الرجل في مثل هذه المواقف يكون هو محل التهمة.

الاستعصام بالله والفرار من الفتنة سبب للنجاة

فعلى من يرجو رحمة الله بعصمته إياه من الفواحش ألّا يسعى إليها، فإن جاءته، فليبذل ما يجد من أسباب دفعها، وإلّا فعلى نفسه جنى الجاني.

قد يُرمى العفيف ولكن العاقبة له

* ومن الفوائد أيضًا أن العفيف -وإن بلغ الغاية في تمام العفة- قد يُرمى بالسوء ظلمًا، فإن كان ذلك فالله حسبه، وعليه أجره، ومن كان الله معه فأي كيد -مهما عظم- يضره؟ ولكن كما قال الله عن نبيه يوسف في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

من أسباب انحسار العفة

* ومن الدروس بيان أن من أسباب انحسار العفة تجرد النساء من ثوب الحياء، مع تسربل الرجال بثوب الخنوع والدياثة، فامرأة العزيز ما كانت لتتطاول وتكرر مراودتها ليوسف عليه السلام على الملأ لولا تساهل زوجها، وسماحه لها بالخلوة بالأجانب، وهو بذلك ـ قصد أو لم يقصد ـ أعانها على فعلتها.

إذا رعى القيم على المرأة أمانته، وقام بأداء واجبه، فقلَّ أن تفجر موليته

ومن هذا القبيل أولئك الذين يتسكعون في النوادي والأسواق، ويجوبون شوارع الريبة وطرقات الرذيلة، فعلى كل عزيز مصر أن يأخذ بأيديهم، وعلى الرجال أن يدركوا أن كل جريمة فاحشة تقع في بلاد المسلمين يتحمل بعض الرجال من وزرها شيئًا؛ فإذا رعى القيم على المرأة أمانته، وقام بأداء واجبه، فقلَّ أن تفجر موليته.



إذا فشت الفاحشة استمرئت

* قالت النسوة: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾، ومن الملاحظ أنهن لم يقلن فتى العزيز راود سيدته، وفي هذه الآية طمأنة لأصحاب المبادئ الذين يتعرضون لتشويه السمعة عن طريق الإشاعات، إذ سرعان ما تنقشع سحابات الإشاعات وتتبدى مواقفهم ساطعة كالشمس، والعامة تقول: لا يصح إلا الصحيح، وصدقوا.

الشماتة بالعصاة والمذنبين من أسباب الوقوع في المعصية

* السامع لعبارة النسوة يلحظ لأول وهلة أنها تطفح بالشماتة والتنقص لامرأة العزيز، والذي يظهر هو أن النسوة أردن إظهار فضلهن عليها؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث: «**إنكن صواحب يوسف**»[1]، فمراد النسوة مدخول، وسبيلهن خاطئ فقد قارفن الشماتة ووقعن في التندر بامرأة العزيز، وزكّين أنفسهن وما حسبن أنهن بجلستهن تلك يشعن فاحشةً ويتمادين في ضلالٍ؛ ولهذا جاء جزاؤهن من جنس عملهن.

من المكر التظاهر بالنصح واستنكار المنكر من أجل الشماتة أو إظهار الفضل

* التظاهر بالنصح واستنكار المنكر من أجل إظهار الفضل على الآخرين، أو الشماتة بهم، أو التنقص لهم ونشر أخبارهم، أمر شائع في زماننا هذا بين الرجال والنساء على حد سواء، وهو من الغيبة المحرمة التي تدل على ضعف التقوى.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، ينظر: البخاري: ١/ ٢٣٦ (٦٣٣)، ومسلم ١/ ٣١٣ (٤١٨).

سقوط الحياء من إتيان الفواحش المذاعة

* الفاحشة إذا فشا أمرها، سقط الحياء من إتيانها، وسهلت مقارفتها، بل ربما أصحبت مخالفتها منكرًا في العرف يترتب عليه السجن والعقاب؛ ولهذا جاءت تشريعات الإسلام مراعية هذا المعنى، حريصة على كبت قالة السوء ومنع فشو الرذيلة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور:١٩]، قال البخاري: تشيع: تظهر[1].

ومن مراعاة الإسلام للحد من ذلك تشريعه للحدود، ومراعاته في تشريعها منع ذيوع الفاحشة، ومن ذلك جعل الحد في الزنى على من شهد عليه أربعة شهود؛ لأنه إما مجاهر بالمعصية، أو سبب لإشاعتها برؤية الجم الغفير مع ترك الحد والنكير، أما المستتر فلا حد عليه ما لم يشهد على نفسه ويطلب التطهر من ذنبه.

التفريق في التربية بين المجاهر والمستتر

* وهذا المعنى ينبغي أن يستفيد منه الآباء والمعلمون والمربون، فيراعوا هذه القاعدة عند التعامل مع الأبناء والتلاميذ، فالذي يدخن سرًا مثلًا يُستر أمره، وتعالج مشكلته دون أن يشعر بها من حوله؛ لئلا يجسروا على الإقدام، بخلاف من يجاهر بذلك، فإن على صاحب الولاية أن يردعه بما يليق.

ولهذا لـمَّا اشتهر أمر امرأة العزيز ولم تجد الرادع تمادت، فبعد أن كانت تستتر منه، وتغلق الأبواب، وتعده فعلًا يستوجب العقوبة ويلزم الفرار منه ولو بالكذب والإنكار، إذا هي تبلغ في طلبه أقصى حدود الجرأة، حتى هددت يوسف عليه السلام أمام النسوة بالسجن والصَّغار ما لم يتدنس بالرذيلة.

---

(١) صحيح البخاري(٦/ ١٠٦).

هل تمنى يوسف البلاء؟

* ومن الفوائد المهمة ما نجده من فزع يوسف عليه السلام إلى ربه ومولاه سبحانه وتعالى، فقد ناداه باسم الربوبية، فقال: ﴿رَبِّ﴾ التي توحي باستحضار النعم وتذكر سالف العناية والرعاية، وأعظمها الحفظ من سبل الغواية، ثم قال: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف:٣٣]، كأنه يعني أن السجن ابتلاء، والوقوع في المنكر ابتلاء، فهذا أحب إليه من مواقعة المنكرات والانضمام لركب الجاهلين.

فليس صحيحًا أنه تمنى البلاء أو دعا على نفسه، بل ليس في الآية دعاء أصلًا، وغاية ما في هذه الآيات أن يوسف عليه السلام سمع قول امرأة العزيز الآنف وعلم خيارَيْها اللذين لا ثالث لهما: الإجابة أو السجن، وأدرك أنه لا محيص عن أحد الأمرين، فصار السجن محبوبًا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام، كمحبة من تهدده أسدٌ بالافتراس إن خرج من السجن أن لا يخرج.



مع الحكمة قد تكون المحنة منحة

الابتلاء سنة الله في عباده

* يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وهذا السجن من الابتلاء الذي هو سنة الله في عباده الصالحين، وفي الحديث: «**أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثل فالأمثل**»(١)، فلا تنقم إن نزلت بك نازلة في الله، واصبر لحكم مولاك، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليُخطِئَك فاحمد الله على أن جعل سببه خيرًا، واعلم أنه تجب عليك في تلك الحال عبادة من نوع آخر، فاشغل نفسك بها، وبعد التمحيص تكون العاقبة للتقوى.

* لا شك أن السجن ابتلاء ينبغي للعبد أن يسأل الله تعالى أن يعافيه منه، لكن المسجون ظلمًا وعدوانًا لا يزيده السجن إلا رفعة ما دام ثابتًا على الحق، فلا ينبغي للداعية الصادق المخلص أن يأسى أو يحزن على ما أصابه طالما كان سجنه ظلمًا وجورًا، فما الذي يريده المصلح بدعوته غير رفعة درجاته وتعظيم حسناته؟ وهذا ما يناله في حال سجنه ظلمًا وعدوانًا، يرفع الله درجته ويعلي منزلته، ويكون سجنه خلوة وميدانًا للعبادة والعلم ومراجعة النفس، وساحة للتربية ومعرفة الناس في الرخاء والشدة.

* فتح يوسف عليه السلام لنفسه آفاقًا رحبة داخل السجن، فلم ينزوِ في ركن زنزانة مظلم قصيٍّ مُحطَّمًا يلعن ظلام السجن وظلم السجّان، بل من فور دخوله بدأ في إشعال شموع الدعوة، والتعامل مع واقع السجن بحكمة دون استسلام

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان في «صحيحه» ٧/ ١٦٠ (٢٩٠٠)، والحاكم في «مستدركه» ١/ ١٠٠ (١٢١)، ورواه غيرهم، وصححه غير إمام، قال الذهبي: على شرط مسلم، وله شواهد.

لذلك الواقع المكبل أو الإذن له في تكبيله، ودون استسلام لأصل الحكم الجائر الصادر عليه، فقد قاومه بما يطيق ومن ذلك قوله لأحد السجينين: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، وبهذا صارت المحنة منحة، فقد حققت بعض مقصوده في الدعوة، وكانت سبيلًا لاعتلاء خزائن الأرض.

تحويل المحن إلى منح

***الذي يظهر أن يوسف عليه السلام كان داعية إلى الله تعالى بأخلاقه قبل أن يكون داعية بكلامه**؛ ولهذا علل السجينان اختياره من بين السجناء ليقصا عليه رؤياهما بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، والناس يحبون المحسنين، كما أن رب الناس جلَّ وعلا يحب المحسنين، وكأن الآية تشير بفحواها إلى أن من أسباب تلك الموهبة الربانية -أعني صواب تأويل الرؤى- الإحسان.

الداعية إلى الله وحسن الخلق

* هنا تتجلى حكمة يوسف عليه السلام في استثماره فرصة تصلح للدعوة التي يعود نفعها على المدعو والداعي، وهذا كان ديدنه عليه السلام فطنًا لبيبًا يحسن الاستفادة من واقع الأحداث واستثمارها، وهذا ملاحظ في سورة يوسف، فلما جاءه السجينان يطلبان تأويل رؤياهما استثمر الفرصة ودعاهما إلى الله، ولـمَّا خرج الساقي من السجن، استثمر الفرصة وأخذ بالسبب للتخلص من السجن ظلمًا، فقال له: (اذكرني عند ربك)، ولـمَّا طلب منه الخروج من السجن، استثمر الفرصة؛ ليظهر براءته وقال للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٥٠]، ولـمَّا قابل الملك وقال له: إنك اليوم لدينا مكين أمين، استثمر الفرصة وقال له: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥].

من الفطنة استثمار الفرص والاستفادة منها

* عرض كل من الفتيين رؤياه على يوسف ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فاستثمر يوسف عليه السلام الفرصة السانحة لِـمَا يعود على السجينين بالنفع العميم، وحتى يتم له ذلك شرع يرسخ عندهما علمه بشيء من

استثمار يوسف الفرصة لدعوة السجينين

الغيب الذي أطلعه عليه ربه سبحانه وتعالى؛ ليعلما أولًا أن تأويل الرؤيا لن يقع جزافًا، فيحملاه محمل الجد، وليوطئ أمر دعوتهما للتوحيد، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[يوسف:٣٧]، هو من براعة استهلال أمر الدعوة، فبدأ بما يتعلق بموضوعهما، وأخبرهما أنه ليس من عنده وإنما هو من قبيل الغيب الذي علمه إياه ربه: إما وحيًا وإما إلهامًا أو بهما.

* وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٣٧] فائدة أخرى تتعلق بمنهج الدعوة، فقبل أن ينتقد يوسف عليه السلام دينهما ويقرر لهما بطلانه أشعرهما بأن الله تعالى الذي سيدعوهما للإيمان به منعم متفضل؛ ليفتح قلبيهما لِـمَا سيقول، لأن الإنسان بطبعه يحب المحسنين المتفضلين، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾، وكلمة ﴿رَبِّىٓ﴾ فيها معنى الرعاية وتدبير الأمور. كما أنه لم يقل لهما: إنكما على دين باطل، بل قال: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٣٧]، والداعية حينما يبين للناس الحق بالكلمة الهادئة المحكمة لا الاستفزاز وافتعال الخصومات فسيفهمون أن ما سواه هو الباطل؛ لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، صحيح أنه قد يحتاج لمواجهة الناس بباطلهم، بل ربما قاتلهم إن أصروا واستكبروا لكن ليس هذا هو الأصل في كل مقام.

استهلال الدعوة بما يمهد لقبولها

* ثم قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨]، ويبدو أن يوسف عليه السلام ذكر آباءه لفائدة، إذ ربما يعرف السجينان طرفًا من أخبارهم، كيف لا وهم أعلام هدى ومصابيح دجى، وقد كان أبوهم إبراهيم عليه السلام أشهر من علم على رأسه نار، وكانت له مواقف مذكورة مع حاكم مصر.

وكل ذلك جارٍ على عادة الأنبياء في تعظيم الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، بخلاف من تنكَّب سبيلهم، تراه ثاني عطفه يظن أنه قد حقق التوحيد، فإذا أمر آمر به أو نهى عن ضده، فلا يظن أبدًا أن الكلام متوجه إليه، أو أنه مقصود مخاطب به، فاللهم رحماك رحماك، إياك نسأل أن ترزقنا تحقيق التوحيد، والعناية به، وخوف الشرك، والحذر منه، وأن تجنبنا وبنينا أن نعبد الأصنام، ربنا إنهن أضللن كثيرًا من الأذكياء، في الهند والسند، والشرق والغرب، بل وفي بعض ديار المسلمين، فلك الحمد على الهداية، ونسألك الثبات حتى نلقاك على التوحيد، أرجى ما به نلقاك.

عادة الأنبياء تعظيم الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك

* وبعد هذه المقدمة اليوسفية -على صاحبها السلام- أشعرهما أنه لم يُرد بذكر آبائه التفاخر وإن كانوا أنبياء، وإن كان أحدهم خليل الله، فذكر لهما أن ما به وبآبائه من نعمة فمن الله وحده، وهذه النعمة -أي: نعمة التوحيد- هي أسبغ النعم عليَّ وعلى آبائي وعلى الناس كافة كذلك، والفرق بيننا وبين الناس أن الناس لا يشكرونها، وشكر نعمة الهداية للتوحيد يكون بالقيام بحق كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها، وما من شك أن الأنبياء هم أكثر الناس قيامًا بحقها، وعملًا بمقتضاها، وكل ذلك خرج على سبيل الترغيب لهم فيها، وتأكيد الدعوة بالفعل، فإن رده النعمة إلى مُوليها، والأفضال إلى مُسديها -سبحانه- من جملة توحيد الربوبية ومقتضاه.

ليس بمحظور إثبات الصحبة بالمعنى اللغوي لفاسق أو كافر

* ثم قال مخاطبًا لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾! والمعنى: يا صاحبيَّ في شدتي، ومراده الصحبة في أصل اللغة، وهذه لا محظور في إثباتها، فقد يحبس المرء جورًا مع فاسق أو كافر فيصحبه في السجن، وليس في ذلك غضاضة عليه، وهكذا كل صحبة اقتضاها مقتضٍ صحيح، وبعد أن ناداهما بلفظ الصاحب الذي يشعر بالقرب الوجداني استخدم مهارة من مهارات الدعوة، فناقشهما نقاشًا عقليًا يؤكد لهما بطلان دينهما.

والمقصود أن يوسف عليه السلام **استثمر الفرصة السانحة في الدعوة، ومهّد لذلك بضرب من إلانة الكلام**، كما فعل موسى مع فرعون. ونبينا ﷺ كان كذلك، فربما ألان الكلام مع المشركين لأجل الدعوة، فتراه يكني الرجل منهم كما فعل مع عتبة بن ربيعة لـمَّا جاء يساومه ليتخلّى عن دعوته وأساء معه الأدب، ومع ذلك لم يعنِّفه النبي ﷺ ثأرًا لكرامته، أو انتصارًا لنفسه، لكنه استمع إليه حتى انتهى من كلامه ثم قال له: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**»[1]، فقابل سوء الأدب بالأدب الجم، فكل إناء بما فيه ينضح، وهو يعلم أن ذلك لن يضيع عند ربه، وقد كان همه الأول إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولا يخفاه أن في الصبر على المكاره خيرًا كثيرًا[2].

التلطف في الدعوة ليس هو الموالاة وقول الباطل

* **ومع ذلك** لم يكن حرص الأنبياء، ومنهم نبينا ﷺ على هداية الناس يدفعهم لاستعمال أية عبارة تدل على أدنى درجات الموالاة للكافرين، فقد عامل اليهود بالحسنى، وعقد معهم المواثيق، لكنه ما أشعرهم في يوم من الأيام بأنهم على حق، ولا سعى في يوم من الأيام للتقريب بينهم وبين المسلمين، عن طريق التنازل عن شيء من الدين، أو إيهامهم بأنهم غير كافرين أو ناجين، لا في زمان ضعف الدولة الإسلامية ولا في زمان قوتها، بل كان يقول لهم: «**أنا أحقُّ بموسى منكم**»[3]، هكذا دون مواربة، فالحق أحق أن يقال.

---

(١) الأثر بهذا اللفظ رواه ابن إسحاق في «السيرة» ١/ ١٨٧، وعنه رواه جمع وسنده صحيح إلا أن فيه انقطاعًا، وله شواهد أخرى اختلف أهل العلم في تصحيحه بها.
وقد ثبت في «الصحيحين» تكنية النبي ﷺ لعبد الله بن أُبي ابن سلول، وفي الصحيح قال: «هذا قبر أبي رغال»، وكان أبو رغال كافرًا. والخلاف في تكنية الكافر منتصب بين أهل العلم، والصحيح عدم الجواز إلا لمقتضى تبدو مصلحته.

(٢) ينظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ٩٢، أول سورة فصلت.

(٣) البخاري ٢/ ٧٠٤ (١٩٠٠).



* فأين ذلك مما يفعله بعض الناس محتجين بما ليس فيه حجة على الباطل؟ إن تسمية دول الكفر بالدول الصديقة أو الدول الشقيقة، وتهنئتهم بأعيادهم فيه إقرار بباطلهم، وإخفاء لواجب البراء منهم، بل فيه ركون إليهم، وإشعار لهم بعلو شأنهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

التفريق بين حسن المعاملة مع الكفار وبين الركون والإطراء

والواجب التفريق بين المعاملة بالحسنى وبين الركون، والإطراء والتعظيم، فيحسن إلى غير الحربيين، ويُقسط معهم، فلا ينتقص حقهم، ويوفى إليهم ما لهم، ولكن لا يعظمون ولا يوالون، ففرق بين إعطاء الحق الذي هو القسط على أكمل وجه وهو الإحسان وبين التعظيم والموالاة، ولا تنافي بين البر والقسط وبين البراءة من الكافرين، بل لا تنافي بين الإحسان والقتل: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدُكم شفرتَه فليُرِحْ ذبيحتَه**»[1]، أما التعظيم والمودة والموالاة فلا، فلا يقال للكافر: سيدٌ، ولا صاحب السعادة، أو الفخامة أو الجلالة، ونحوها من عبارات التبجيل والتفخيم، وفي الحديث: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيدًا، فقد أسخطتم ربكم عز وجل**»[2].

وجماع ما تقدم أن موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين أوثق عرى الإسلام، والتساهل في ذلك قدح في التوحيد، والأنبياء من أبعد الناس عن هذا، وقد سلكوا في دعوة الكفار مسلك القسط والإحسان، دون تعظيم أو مودة.

---

(١) حديث شداد بن أوس في «صحيح مسلم» ٣/ ١٥٤٨ (١٩٥٥).

(٢) رواه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٦، ح(٢٢٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٠)، وأبو داود في سننه (٤٩٧٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٦٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٤)، وغيرهم وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٣٧١).

وكما أنه ينبغي التفريق بين الإحسان وبين الموالاة والتعظيم، فينبغي كذاك التفريق بين سب دينهم، وبين تبيان ما به من باطل بأسلوب هادئ رصين منضبط، لا يثير المدعو ولا يستفز حميته للجاهلية.

التفريق بين سب دين الكفار وبيان ما به من باطل

* وبعد أن ناداهما بذلك النداء، وعطف قلبيهما إليه بذلك الأسلوب، سألهما مقررًا ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فأي الحالين خير: وجود أرباب متنوعة يستقل كل واحد منها بأثر، أم إله واحدٌ معبود بحق حبًا وتعظيمًا، فلا يستقل بالتأثير شيء دون الواحد القهار؟

تقرير يوسف عليه السلام للإلهية

وكأنه يشير إلى أن الخيار الأول يقتضي فساد نظام الكون، وعلو بعض الآلهة على بعض، وذهاب كل إله بما خلق، وهذا خلاف الواقع، ولو كانت أربابًا متفرقة لامتنع أن يكون أحدها مستقلًا بخلق العالم، إذ لو استقل لكان الرب واحدًا للعالم، وامتنع أيضًا أن يكون أحدهما مشاركًا للآخر معاونًا له؛ لأن ذلك يستلزم عجز كل منهما إلاّ بمعونة الآخر، والعاجز لا يكون ربًا ولا يستحق أن يكون إلهًا. وإذا تقرر أن وجود أرباب متفرقين ليس بخير، فلم يبق خير في المفروض إلّا وجود إله حق واحد متفرد بالقهر والتصرف، مستحق دون سواه للعبادة والتعظيم.

* ثم أكد ذلك ببرهان آخر وهو عدم الدليل على صحة دينهما، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٠]، فهذه الآلهة التي تعبدون ما أنزل الله سبحانه وتعالى بعبادتها من سلطان، ولا حجة لكم في عبادتكم إياها، فلا برهان من أثر ولا نظر يفيد أنها آلهة حقًا، بل هي مجرد أسماء اخترعتموها ثم عبدتموها، وأيضًا فالحكم الشرعي والكوني لله وحده وليس لكم أن تثبتوا لِـمَا تعبدون شيئًا من أقسام الحكم، وإذا لم ينزل الله سلطانًا بعبادتها، فقد أنزل سلطانًا بعبادته وحده، فاعبدوا من له

الحكم وحده، الذي أمر أن لا تعبدوا غيره، ولا تتحاكموا إلى غير شرعه، وفي هذا تقريرُ أن تحكيم شرع الله دين يقترن بالتوحيد ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالذين يحصرون الدين في إفراد الله بأداء الشعائر له وحده سبحانه، في توحيدهم نقص ما لم يتحاكموا إليه ويسلموا تسليمًا، بل ﴿مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، فقد يكون ترك تحكيم شرع الله كفرًا وقد يكون دون ذلك كما بيَّن القرآن الكريم، فالدين الموصل لرضوان الله هو الدين الذي لا يعبد فيه إلّا الله ويكون الحكم فيه لله، فـ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان غير مستقيم، معوج يوصل إلى الشر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها. ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك.

* ثم بعد أن عبر لكل واحد منهما رؤياه: ﴿قَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، والتعبير هنا بـ(ظن) مع أنه نبي مسدد، مشعر بأن على غيره من المعبرين ألا يقطع بصحة تعبيره؛ لأنه ربما أخطأ.

ينبغي للمعبر أن لا يقطع بتعبيره

* وطلبه من الذي ظن أنه ناج أن يذكره عند ربِّه -أي: سيِّده، وهو الملك- نوع من الأخذ بالأسباب، وبهذا يعلم أن يوسف عليه السلام، بذل ما في وسعه من الأسباب التي تجعل السجن تلك المحنة منحة تحمد عاقبتها، ومن كان هذا شأنه حري به أن يتم له مقصوده، وأن تكون العاقبة له، ولو بعد حين، وهذا ما كان ليوسف عليه السلام بعد أمد كانت مدته بضع سنين، والبضع: من ثلاث إلى تسع سنين، والتعبير بالسنة يُشعر بشدة تلك الأعوام.

بذل الوسع في الأخذ بالأسباب

* ولعل من مقاصد يوسف عليه السلام في حضه الفتى على ذكره، إبلاغ قضيته الملك؛ ليُشعره بأهمية العناية بحقوق السجناء، وبضرورة حرص ولاة الأمور على التعرف على أحوال المسجونين؛ لئلا يسجن أحد بغير جريرة، أو يسجن جانٍ فوق ما يجب، أو يضيَّع أي حق من حقوقه.

* قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾، ونسيان الساقي أن يُبلغ الملك وصية يوسف عليه السلام كان ابتلاءً آخر، لكنْ لعل ربه تعالى بعلمه وحكمته لم يشأ أن يجعل لعبد من عبيد الملك على عبد من عباده تعالى فضلًا، فلم يجعل فكاك هذا النبي الكريم من السجن بالتماس يُقدِّمه أحد السقاة للملك، كلا، لن يخرج صَفيّه عليه السلام إلا بالتماس من الملك نفسِه يُقدِّمه له بعد أن ينفذ كل شروطه، ثم يمكّنه من خزائن الأرض يفعل فيها ما يشاء وفق مقتضى حفظه وعلمه، ويمكنه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وتلك عاجل بشراه. أما في أخراه، فلا تدري نفس ما أخفي له من قرة أعين، جزاء إحسانه وتقواه.

اختيار الله للعبد خير من اختياره لنفسه

ولكأني أسمع هذه الآيات تنادي أمة غافلة أن هلمي إلى كتاب ربك، فلا هادي لك في ظلمات هذه الجاهلية سواه. ما لي أراك تتلفتين شرقًا وغربًا تلفُّت الحائر المغلوب؟ عمّ تبحثين؟ عن تجارب من تفوقوا عليك حضاريًا لتلحقي بركبهم؟ ألا ما أضلك وأشقاك! أنَّى لمثلك أن يُقلد أمثال هؤلاء الضُّلال الفاسقين؟ أوَتتخذين ما حباك الله به من نعم وراءك ظِهريًا، ثم تُطوِّفين على موائد هؤلاء اللئام فيضِنّون عليك بما عندهم من رجس؟

أيتها الأمة المختارة! أتبحثين في هيئات القوم ومؤسساتهم عن ميثاق يعطيك بعض حقك، ويحميك من ظلم بعض المعتدين؟ ألا ما أتعسك وأغباك! متى سمعت في دنيا الحيوان عن نعجة تختبئ من القصَّاب في بيت الذئاب؟ أأنت أضل

من هذه البهيمة؟ أما وقعت عينك مرة واحدة ولو على سبيل الصدفة على ميثاق ربك: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[النور:٥٥]؟ ربك جلَّ في علاه يصرّح بلفظ الوعد، ويقول لك: أخاطبك أنت، ويؤكد لك كل بنود الميثاق بكل ما تعرفين من أدوات التوكيد، ثم تفرين منه إلى هؤلاء العبيد؟ وهم على هوانهم يستكبرون عليك، وكلما ألحفتِ في سؤالهم واستجدائهم زادوا في احتقارك وازدرائك!

أيتها الأمة الغافلة اللاهية: لتمسحِنَّ عن عينيك ما علاهما من غشاوة، ولتزيلِنَّ عن أذنيك ما بهما من وقر، ولتُقبلِنَّ على كتاب ربك بعقل اللبيب المتدبر، وقلب المؤمن الصادق، أو فلْتأذني بخزي يُجلِّلُكِ ما امتدت بكِ الحياة، ولتعلمي أنك مردودة إلى أشد العذاب يوم يقوم الحساب.

أيتها الأمة الفارَّة من رحمة ربك الوهاب! بادري بالإياب، قبل أن يوصد دونك الباب، وابذلي الأسباب، متعلقةً بالقويِّ مسبب الأسباب، ومذلل الصعاب .. سبحانه ما أعزَّ شأنه.



رؤيا الملك

تعظيم شأن الرؤيا وتفخيمه لئلا يجترئ عليه أي أحد

* هذه الرؤيا خلّد الله تعالى ذكرها في كتابه العزيز وذكر تفاصيلها؛ لأنها من أعظم الرؤى التي عرفتها البشرية، فقد تعلقت بها حياة شعوب بأكملها، إذ رآها ملك مصر، فأهمته وأقلقته، وجمع الأعيان وأهل المشورة والرأي لتعبيرها، وقال: ﴿أَفْتُونِي﴾؛ ليفخم أمر الرؤيا ويعظم شأن الحديث فيها.

جهل البطانة وسوء تعبيرهم

* ورغم ذلك فلمَّا قصها عليهم، قالوا: أضغاث أحلام! **فحسموا القضية -هكذا بالجهل-** بهذه السذاجة واللامبالاة على عظمها، وبتُّوا فيها بهذه السرعة رغم جهلهم الذي لم يخفوه! وكان حريًّا بهم إذ جهلوا أن يحيلوا على أهل العلم والاختصاص، أو يبينوا جهلهم، وأما الفتوى بغير علم، فقد تورد الناس المهالك، ولك أن تتوهم كيف يغدو أمر الدولة لو لم يدَّكر الساقي الذي أفاد من صحبته ليوسف عليه السلام في السجن؟ أتهلك أمة كاملة؛ لأن الملك لم يحسن اختيار مستشاريه، أو لأنهم لم يحسنوا النصح له؟ أيتضور الناس جوعًا سبع سنين حسومًا؛ لأن المستشارين لا علم لهم، ولا ضمير؟

إن عدم اختيار البطانة الصالحة التي تحسن سياسة أمور الدولة، وتحرص على مصالح الرعية من أضر الأخطار التي يمكن أن تتهدد البلاد، وهذه الحقيقة تتجلى للمتأمل في خبر ملكة سبأ لـمَّا جاءها كتاب سليمان عليه السلام فاستشارت الملأ، فأشاروا بالمواجهة بالقوة دون رويّةٍ ودراسة ونظر في العواقب، وتقديرًا لشأن من تحارب! ولو عملت بمشورتهم لَـمَا قامت لملكها قائمة، ولصار أعزة مملكتها أذلة حقًا.

أهمية التلطف مع الكبراء

* وفي قول الملأ: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ ترك لنوع من التلطف في العبارة والأدب، ومثل هذا الأدب في التعامل مع الكبار والزعماء أمر مطلوب حتى ولو كان هذا الزعيم كافرًا، والنبي ﷺ لـمَّا راسل القادة إلى الدول المجاورة كان يراعي في خطابه لهم مكانتهم عند قومهم فكان يكتب مثلًا: «**من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم**»[1]، فلم يقل العظيم مطلقًا لكنه قيدها فقال: عظيم الروم، وهو عظيم عند قومه، وبخلاف الملأ كان الساقي أكثر أدبًا حيث قال: (فأرسلون) مخاطبًا الملك، خطاب الجماعة.

الأدب مع القادة والملوك من الحكمة في الدعوة

ولا شك أن الأدب مع القادة والملوك من الحكمة في الدعوة، وهو مطلوب مع الناس كافة، إلا أن النفاذ لقلوب الملوك بالكياسة وحسن الأدب فيه مصلحة للأمة كلها؛ لأن الرعية تصلح بصلاح راعيها، والأصل قول ربنا سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥]، أما الزعيم المحارب الذي يصد عن دين الله، فلا بد من إظهار العزة بالإسلام عند الحديث معه أو مكاتبته، وقد روي أن هارون الرشيد أرسل لقائد الروم لـمَّا هم بقتال المسلمين: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم[2]، فلكل حالة ما يناسبها، ولكل شخص ما يليق به.

* هنا تذكر الساقي ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وهكذا ما بين يوم وليلة جعل الله تعالى رؤيا الملك سببًا في التمكين ليوسف عليه السلام، وللتعريف بكريم

(١) البخاري: ٤/ ١٦٥٨(٤٢٧٨) وغيره.

(٢) «تاريخ الطبري» ٤/ ٦٦٩.



أخلاقه، ولإعلان براءته. فمن فضل الله جل وعلا على يوسف عليه السلام أن صاحب الرؤيا هو الملك، وأن رؤياه تعلقت برعيته وباستمرار ملكهم ورغد عيشهم، وأنه ما من أحد استطاع أن يعبرها غيره، فذلك وغيره كان سببًا في اهتمام الملك بأمره، وتقريبه منه، بل وتولِّيه وزارة مصر، وفي كل ذلك إيذان ببداية التمكين ليوسف عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].



الداعية وتنقية الصحيفة والبعد عن الريبة

الداعية وتنقية الصحيفة والبعد عن الريبة

* لما جاء الرسولُ يوسفَ عليه السلام أبى أن يخرج من السجن حتى تثبت براءته، فلا يبقى في نفس أيِّ أحد أدنى ارتياب من أمره، والناس غالبًا ما يَـخِفُّون لمقابلة الكبار والملوك إذا سنحت لهم الفرصة، كما أن السجين لـمَّا يتلقى نبأ الإفراج عنه يستحوذ النبأ على كل مشاعره، فلا يكاد يفكر في شيء سوى الإسراع بالخروج، لكن يوسف عليه السلام **لم تستغرقه اللحظة الحاضرة**، بل كان يعي هدفه، وكان رشد عقله قادرًا على السيطرة على مشاعره، والتفكير في مآلات الأمور. وتبرئة النفس من أي تهمة لحقت بها أو ربما تلحق بها مطلب شرعي.

أهمية عفة اللسان

* ولهذا لـمَّا جاء الأمر من القيادة العليا للدولة إلى يوسف عليه السلام بالمجيء قال بملء فيه: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠]، كلمة حكيمة ليست رعناء ولا هوجاء، فلم يجب بما لا يناسب مقام المخاطب، ولم يقدح في المدّعى عليهن، بل عمد إلى تبرئة جنابه بأعفّ عبارة، فلم تكن عفة يوسف عليه السلام تقتصر على ابتعاده عن المنكرات، بل بلغت عفة لسانه حدًّا يجعله لا يشير إلى المرأة التي حاولت فتنته، ثم سجنته هذا السجن الطويل، بل يذكر قرينة تشير إلى القضية دون أن يصرح باتهام أحد، والذي يتجنب الفحش في الكلام لا يمكن أن يقع في فاحش الأفعال.

الإحسان للمسئ من أسباب ندمه على إساءته

* ويبدو أن موقف يوسف وعفة لسانه مع امرأة العزيز الساجنة المراودة المسيئة، كانت عاقبته ندمها، وفواقها من غفلتها، واستشعار عظيم جنايتها في حقه، وتلك حال قد تعتري كثيرين ممن يسيئون للآخرين، فإذا قدر الآخرون ولم يكافؤوا الإساءة بالإساءة، بل أحسنوا إلى المسيء، كان لذلك عظيم الأثر على النفوس التي لم يتمكن اللؤم من أصحابها، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

فيوسف خلاءٌ براء، انفسحت عنه التهمة، وسقطت عنه الظِّنَّة، وبان للملأ أنه بمنتزح عما رُمي به، وإذا نفى الشهود التهمة عن المتهم، وأكد الخصم براءة خصمه دون حضوره أو حضور هيئة دفاعه، كان في ذلك دليل قاطع على نقاء جيبه، وأمن مُغَيَّبته.



الولاية والتمكين

من السجن إلى قصر الحكم

* بعد أن حصحص الحق وظهر أمر الله، حصلت النقلة، فإذا بسجين الأمس، الذي لم يكن أحد من البشر قبيل يوم من تسارع الأحداث، يستطيع أن يخمّن موعد خروجه، إذا به بين عشية وضحاها يتوجه نحو القصر؛ ليكون شريكًا في الملك، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾، فسبحان من بيده الملك، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون، أوَبعد ذلك يتطرق اليأس إلى قلوب عرفته؟ فما بال نفوس بعض المؤمنين امتلأت يأسًا؟ أليس الله أهلًا لحسن الظن؟ ألم تجر سنته بتداول الأيام بين الناس، وقد حكم أن العاقبة للتقوى؟ ألم يقل الله عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أليست لنا في القصص عظة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥]،

طريق التمكين

فما أقرب النصر والتمكين لهذه الأمة المستضعفة المسلمة، إن نصرت ربها، وراجعت دينها، واستقامت على سنة نبيها ﷺ، ثم صبرت على التمحيص، عندها يخلق الأسباب خالق كل شيء، كما خلق ليوسف عليه السلام بين عشية وضحاها أسبابًا لم تكن في الحسبان، إنه على كل شيء وكيل.

والمتأمل في تلك الأسباب يجد علاقتها بالإيمان ظاهرة، فإحسان يوسف عليه السلام، وصبره على الطاعة وعن المعصية وعلى القضاء، وحسن تصرفه وعزته، كلها أسباب دعت الملك ليصدر قرار الاستخلاص من فوره.

*جاء يوسفُ عليه السلام إلى الملكِ فلما رآه وكلَّمه، ازداد إعجابًا به، فلم يملك إلا أن يقول: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، مكين: ذو مكانة، وأمين: فعيل يدل على تمكن وصف الأمانة فيه.

اختيار المنصب المتناسب مع قدراته، ويستطيع من خلاله أن ينفذ إلى قلوب الناس

*ومما يدل على عقل يوسف عليه السلام ورشده **استثماره الفرصة** إذ طلب منه أن يوليه وزارة تتناسب مع قدراته، ويستطيع من خلالها أن ينفذ إلى قلوب الناس ويبلغ رسالة ربه، فالناس يستجيبون لمن يُعنى بمصالح دنياهم، كما يعنى بمصالح أخراهم، مع عفته عمّا في أيديهم، فإذا عرفوه ناصحًا في الدنيا -حيث يتنافس الناس عليها- استدلوا بذلك على نصحه لهم في شأن آخرتهم، حيث لا مصلحة له بغشهم، فراعى يوسف في طلبه ما فيه نفع الناس، مع علمه بصلاحه له، وراعى أيضًا في طلبه حاجة الناس إليه في ذلك المقام حيث علم من نفسه القدرة على الخروج بالدولة من الأزمة المقبلة، فقال له: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثم بيَّن للملك ـ الذي استقرت عنده مكانته وأمانته المقتضية صدقه ـ سبب اختياره لهذه الوزارة فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

* ولعلك تلحظ في تعليل يوسف أحقيته بالمنصب أسبابًا خصّها دون غيرها، فلم يقل: إني حسيب كريم، فليس الحسب وكرم الأصل مؤهلًا للولاية إذًا، ولم يقل: إني مليح جميل، فليس ذلك معتبرًا هنا، ولم يقل: بما أنني صرت قريبًا منك، أو في حاشيتك لذلك عليك أن توليني، فليس ذلك مؤهلًا من مؤهلات ولاية العامة، ولم يقل كذلك: ولِّني لفصاحتي ولباقتي ونحو ذلك مما حباه الله إياه وفاق فيه

غيره؛ لأنه لا يناسب الطلب، بل ذكر الحفظ والعلم، وهنا مربط الفرس كما يقال.

*وإخباره عن نفسه بذلك ليس هو من التزكية المذمومة التي هي من باب العجب أو الغرور أو الفخر، فما نُهي عنه هو قصد تزكية النفس، أما ذكر الكلام المنطوي على تزكية للنفس لغرض الإخبار بحق لحاجة أو ضرورة يتوصل بها إلى هدف مشروع هو المراد لا أصل التزكية، فلا حرج فيه، وقد يجوز تبعًا ما لا يسوغ استقلالًا.

حكم الكلام المنطوي على تزكية للنفس غير مقصودة

وهذا كثير في السنة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[1]، فهذا فيه إخبار ينطوي على شيء من مدح النفس، لكنه أراد بذلك الخبر الحض على الثبات، وقال: «**أنا سيِّد وَلَد آدم ولا فخر**»[2]، فهذا خبر ينطوي على تزكية، لكنه أراد بذلك أن يبين حقيقة.

* إذا كان الأمر كذلك؛ فلا يسوغ لأحد أن يحرص على ولاية لا يحسن تدبير أمرها بحجة الإصلاح، فإن جهله بها أو عدم قدرته عليها من دواعي الإفساد وإن زعم إرادة الإصلاح، وحسن النية لا بد أن يصحبه صواب العمل.

* وهل يجوز طلب الولاية؟

حكم طلب الولاية

الطيبون من أهل الإسلام في هذه المسألة طرفان ووسط: ففريق يريد أن يعيش في هذه الحياة دون أن يثقل كاهلَه عبءُ مسؤولية يعرف أنه محاسب عليها، وفريق يرى أن في الولاية فرصة سانحة لنشر الدين وإظهار شعائره، فمن خلالها يكون الأمر بالمعروف، وبها يكون للنهي عن المنكر سلطان، والقول الوسط في

---

(١) متفق عليه من حديث البراء بن عازب، ينظر البخاري ٣/ ١٠٥١ (٢٧٠٩)، ومسلم ٣/ ١٤٠٠(١٧٧٦)، وقد روياه في غير موضع.

(٢) رواه مسلم ٤/ ١٧٨٢(٢٢٧٨).



المسألة: هو أن طلب الولاية إذا قامت دواعيه شُرِع، أما إذا كان طلب الولاية لحظ النفس كتحصيل مكسب يراه حلالًا، أو يشتمل على تقديم غير الكفء فلا يجوز، بل على الوالي إذا جاءه من يطلب الولاية وهو يعرف أن في البلد من هو مثله أو من هو أكثر كفاءة منه ألا يوليه؛ لأن طلبه للولاية نقص، ومخالفة لأمر النبي ﷺ وهديه.

حكم المشاركة في برلمانات الدول الكافرة

* وهنا يَرِدُ سؤال: هل ينسحب ذلك على وزارة الدول الكافرة أو الظالمة والمشاركة في برلمان الدولة الكافرة ؟

المختار أنه يجوز بشروط ، ودليله تولي يوسف عليه السلام وقد كان الملك كافرًا على القول الراجح، و أهم هذه الشروط:

أولًا: ألا يترتب على اشتراكه في هذه الولاية إقرار كفرٍ.

ثانيًا: ألّا تكون فيه مساعدة ظاهرة على الظلم فضلًا عن أن يقع في الكفر.

ثالثًا: أن تكون مصلحة المشاركة راجحة على المفسدة، بشرط عدم ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، كالقيام بتنفيذ دستور كفري، أو حمياته وصيانته.

أما القول بأن ذلك كفر بإطلاق، فلا يستقيم، ولعل فيه بُعدًا، فإن ما كان اليوم كفرًا لم يكن في شريعة نبي من الأنبياء برًا، فالكفر والشرك ليس من قبيل المسائل التي يدخلها النسخ، بل هو من قبيل الأخبار المحققة، أما من حكم بأنها كفر لواقع معين ماثل كالإلزام ـ على سبيل المثال ـ بالقسم على دستور كفري ثم التزامه ثم المؤاخذة به، فهذا شأن آخر، ومسألة الأفعال التي قد يكفر بها في هذا الصدد والتي لا يكفر تحتاج إلى بحث وتحرير، ليس هذا موضعه[1].

---

(١) انظر للمؤلف رسالة بعنوان: (جدل الديمقراطية والمشاركة السياسية)، حيث دُرس هذا الموضوع وبسط القول فيه، وفق الأصول الشرعية، والأصول المرعية في البحث.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦]، فلم يذكر عن الملك جوابًا، مع أنه أجابه لسؤاله وولّاه، وفي هذا نكتة وهي أن الوزارة أو الولاية ليست تمكينًا في حدِّ ذاتها، بل قد تكون وبالًا ونكالًا على صاحبها، فلا يتبوأ من الأرض إلّا ما حرس وحف وأُمِّنَ قبل قدومه، ومع ذلك ربما لم يأمن صاحبها، فلما كانت النعمة الحقيقة هي ما وضعه الله ليوسف في قلوب العباد من الحب والتعظيم، والسرعة إلى الطاعة والتبجيل بحيث يتبوأ من أرضهم حيث يشاء ذكرها، وأعرض عن ذكر تولية الملك؛ لأنّ توليته لم تكن إلا لمصلحته ومصلحة بلاده، وقد صرح الملك بهذا فقال: ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾.

الإحسان من أعظم أسباب التمكين

* وبعد أن ذكر التمكين نوَّه إلى أحد أعظم أسبابه ألا وهو الإحسان، فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦]، فالـمُحسِن فائز بلا شك، وحتى لا يتوهم إنسان أنه بالإحسان استعاض الأجر في الدارين، قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا﴾ من سبقت له سابقة السعادة بمشيئة الله فليس في الوجود مُوجِبٌ ومُقتَضٍ إلا مشيئة الله وحده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، وذلك فضل الله، يمنُّ به على من شاء، وتلك رحمته، يصيب بها من أراد، ومن رحمته أن كتب على نفسه الإحسان لأهل الإحسان، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].





الترغيب والترهيب سياسة شرعية

ذكر اللباب وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى

* ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وهنا انتقلت القصة إلى ما فيه العبرة من مصير إخوة يوسف، فإخوته ما جاؤوا إلا بعد انقضاء سنوات الرخاء وبداية سِنِيّ الشدة[1]، وقصص القرآن الكريم جميعها تقتصر على مواطن العبر والعظات دون تعرض لفضول الأحداث، فذكر اللباب وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى.

ولـمَّا كانت السنة وحيًا كان في كلام النبي ﷺ شيء من ذلك، فقد اختصر له ﷺ الكلام اختصارًا، وهذا مما فضل به نبينا على سائر الأنبياء[2].

* فلما دخل عليه إخوته عرفهم مباشرة؛ ولهذا عقّب بالفاء: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾، أما إخوته فلم يعرفوه كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنه لم يكن ليخطر ببالهم أن يكون العزيز أخاهم الذي ألقوه في البئر، ولأنه كان صغيرًا حينها، فلما كبر تغيرت ملامحه، ثم كأنه عليه السلام كان يتولى الإشراف والمتابعة في التمويل بنفسه؛ لأن التفريط في هذا الشأن وإسناده إلى غيره ربما ضيّع البلاد قبل تمام السنوات الممحلات، ومن كان هذا شأنه، فمن الطبيعي أن تدور بينه وبين الوفود كلمات، وأخذٍ وردٍّ ومحاورات.

---

(١) ذكره الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» عند هذه الآيات ١٢/ ٨٤.

(٢) كما في حديث أبي هريرة عند مسلم ١/ ٣٧١ (٥٢٣)، وأصله في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة بغير التفضيل في غير موضع.



الصرامة والحزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة

* ويظهر كذلك أن في بعض تلك المحاورات ذكروا أن لهم أخًا، وقد كان يفرض للرجل حِمل بعير، كما قالوا لأبيهم لما قفلوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٦٥]، فلعلهم أرادوا الاستزادة من الميرة بذكر أخيهم له وإخبارهم بشأنه لما رأوا إحسانه، فأبى وأظهر الصرامة والحزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة، وقال لهم بعد أن جهزهم بجهازهم: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، فإن كان لكم أخ كما تقولون فأتوا به، فلن أبخسه حقه، ولن أهين مقامه، ولو كنت أعطي الناس بدعواهم لذهبت خزائن الدولة، وفي هذا ترغيب مع حزم، ثم أتبعه ترهيب جادّ فقال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف:٦٠]، فلا كيل لكم ببضاعة أو بغير بضاعة، بل لا تقربون لأكيل لأخيكم أو أبيكم، وذلك لأن ترك الإتيان به على الرغم من حصول الترغيب مع عدم المانع، يُشعِر بكذب وتحايل لأخذ المزيد بغير حق، ومن استعجل أمرًا قبل أوانه، وطلبه بغير حقه كان جديرًا أن يعاقب بالحرمان في المرات القادمة.

واللطف والترغيب، مع الحزم والترهيب، من أركان القيادة الناجحة

* وفي هذا الأسلوب ترغيب ثم ترهيب، واللطف والترغيب، مع الحزم والترهيب، من أركان القيادة الناجحة؛ لأن القائد الناجح هو الذي يقدر على قيادة القلوب والأبدان، وقد فصل شيخ الإسلام في هذه المسألة في كتاب «السياسة الشرعية»، وبيّن أن المُلك لا يقوم إلا بهما معًا، بل حتى في البيوت لابد من الإحسان والرحمة والعطف واللطف مع الحزم والجرأة في الحق.

* قالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن المسألة تحتاج إلى أخذ ورد، وأن الأمر ليس إليهم، وأن لأبيه مسوغات قد لايستجيب لهم بسببها، غير أنهم أكدوا عزمهم على بذلهم قصارى جهدهم فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١]، وفيه إشعار بأن ما في وسعهم سيبذلونه، فلا تؤاخذنا بما ليس في أيدينا، فإن ذلك مقتضى الإنصاف الذي أنت أهله.

* ويبدو أن يوسف عليه السلام خشي ألا يُجابوا فأراد أن يجعل لهم سبيلًا آخر للرجعة، فأشار من طرف خفي إلى فتيته بعد أن جهز القوم، بأن يردوا عليهم بضاعتهم في الأرحلة دون أن يشعروهم، فرد بضاعتهم إحسانًا، وليكون لديهم

ما يشترون به مرة أخرى، دون أن يتأخروا، ويظهر أنهم فهموا أن ذلك فضلًا منه وكرمًا؛ ولهذا قالوا: ﴿بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ [يوسف:٦٥].

* وقد يرد هنا سؤال، لم لم يطلب يوسف عليه السلام مجيء أبويه وأهله مع معرفته بمعاناتهم، ثم أليس في طلبه أخاه مزيد عناء يلحق أباه؟ ولعل من جواب ذلك إرجاع تصرفه للوحي، فقد أراد الله عز وجل أن يكتمل بلاء يعقوب عليه السلام رفعة لدرجته، وأراد أن يكون ذلك سببًا لكرامته وكرامة يوسف بعد إذ رد عليه بالقميص بصره، وسنة الله جارية على أن الفرج يأتي بعد أن تستحكم الحلقات، ويشتد الكرب، وتضيق الأمور، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠]، وكل ذلك ابتلاء وتمحيص لينظر عز شأنه كيف يعمل عباده، وتأمل كم من عبرة لنا في هذا القَدَر الذي أجراه الحكيم الخبير!

مشروعية المقاطعة الاقتصادية لتحصيل غرض مشروع طالما أن المصلحة الشرعية اقتضتها

* المقاطعة الاقتصادية سلاح فعَّال بيد الحكومات والشعوب لردع الظالمين والمعتدين اليوم، وقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في استخدام هذا الأسلوب لإرغام المشركين، ففي خبر ثمامة بن أثال لـمَّا أسلم و«قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم»(١)، فكان إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم له مدة دليلًا على مشروعيتها، ثم لـمَّا اقتضت المصلحة رفعها وذلك بإذعان المشركين له واستجدائهم فضلَه أمر برفعها(٢).



(١) متفق عليه؛ البخاري ٤/ ١٥٨٩(٤١١٤)، ومسلم ٣/ ١٣٨٦ (١٧٦٤).

(٢) انظر في ذلك المقاطعة الاقتصادية للدكتور خالد الشمراني.

رحلة بنيامين (١)
احتياط وأخذ بالأسباب

من شأن الأبناء البررة ابتدارهم والديهم قبل الأهل والذرية عند القدوم من السفر

* انتقلت الآيات تخبر عن حالهم في مضاربهم وأرض قومهم، ويبدو أن الإخوة أول ما رجعوا ابتدروا أباهم، قبل الأهل والذرية، يسلمون ويخبرون بما كان من أمرهم، وهذا من **شأن الأبناء البررة وذلك مشعر بشيء من تحولهم**، ولو نزلوا عند أهلهم أولًا، لأنزلوا رحالهم في بيوتهم وعرفوا ما فيها، وكان فيما أخبروا به أباهم ما وعدوا به العزيز وأكدوه فقالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾، والمعنى: حُكم علينا بالمنع من طلب الكيل بعد اليوم.

* ولما طلبوا مجيء أخيهم معه، أكدوا حفظهم له فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، إنها الكلمة نفسها التي قالوها يوم قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:١٢]، لقد أعادت الكلمة إلى ذهن الأب الرفيق الشفوق صورة ابنه الحبيب: يوسف وهيجت الأحزان.

المؤمن كيس فطن

عندها لم يتمالك يعقوب إلا أن: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فليس التعويل عليكم، بل على الله أعوّل، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وكلمات يعقوب هذه تشعر بأن المؤمن ينبغي أن يكون كيسًا فطنًا،

(١) ذكر كثير من المفسرين أن اسم الأخ الأصغر ليوسف عليه السلام هو بنيامين، وقد جاءت تسميته في آثار مرفوعة لا تثبت، وقد أُثبت اسمه هنا جريًا على ما ذكره أهل العلم والمفسرون، ولم أقف على اختلاف في تسميته.



فلا يلدغ من جحر مرتين، لقد تعامل معهم بناءً على تاريخهم، فكان جرمهم الأول سببًا في فقدان ثقة أبيهم بدل أن يكون سببًا في خلو وجه أبيهم لهم كما ظنوا.

الإذن لبنيامين في الرحيل بعد الاحتياط

* ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فلما رجعوا إلى متاعهم، وتفقدوه وجدوا أن بضاعتهم رُدَّت إليهم، فلمسوا من ذلك كرم العزيز ورفقه بهم، فشحذ ذلك هممهم ورفع معنوياتهم، فرجعوا إلى أبيهم وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ، أي هذا ما نريد: الأثمان، وطلب الميرة بها لأهلهم، وحفظ أخيهم إن أرسل معهم ليزدادوا ميرة بعير. والمِيرة: اسم للطعام المجلوب، فهم لـمَّا رأوا الأثمان عقدوا العزم على العَود، فلما وجد يعقوب عليه السلام أن بضاعتهم رُدت إليهم، تبين له صدقهم، وبدا له شيء من إحسان العزيز ومثله يؤتمن، فقرر أن يُرسل صغيره معهم بعد أن يُعطوه موثقًا من الله، ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ ، فرغم حرصه عليه السلام على اتخاذ الأسباب لئلا يسوِّل الشيطان لأبنائه أن يكيدوا ببنيامين كما فعلوا بيوسف، إلا أنه ما نسي أن الأمر بيد الله تعالى أولًا وآخرًا.

حكمة الدخول من أبواب متفرقة

* خشي يعقوب عليه السلام على أبنائه من العين لكثرة عددهم فأمرهم ألا يدخلوا من باب واحد، ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ولعل السبب الآخر هو أنه خشي أن يصابوا إصابة جماعية فنصحهم بالتفرق في الأبواب، وهذا هو التفسير المنقول عن السلف.

الاحتياط والأخذ بالأسباب

* ثم علَّم يعقوب عليه السلام أبناءه أن الاحتياط مطلوب، والأخذ بالأسباب لازم، لكنه لا يغني عن العبد من الله من شيء، ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾

* وأكّد الله تعالى هذا المعنى فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف:٦٨]، والحاجة هي أمره لهم بما أمرهم به من الدخول من أبواب متفرقة، الذي هو سبب للحفظ من العين بإذن الله، ثم ثنّى بالثناء على يعقوب تنبيهًا إلى أنَّ قوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ والذي يتضمن ربط السبب بمسببه، لا يعني اطراح الأسباب وإهمالها، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فقد جرت سنة الله تعالى بالخلق بها، ومتى شاء الله تخلّف النتيجة عن سببها تخلّفت، فأهل الحق يبذلون الأسباب الصحيحة ويتوكلون على مسببها سبحانه وتعالى.

أهمية الاعتدال في مسألة العين

ويجب الاعتدال في مسألة (العين)، فلا يبالغ فيها حتى يعاد أي ضرر يحدث إليها، كما يفعل بعض الناس، ولا تنكر، فالعين حق، وقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»[1]، ومع ذلك فقد جعل الله عز وجل أسبابًا تمنع منها، كأوراد الصباح والمساء، وجعل أسبابًا شرعية أخرى للشفاء منها إذا أصابت.



(١) صحيح مسلم (٢١٨٨).

حيل وتخطيط وكيد إسلامي

جواز التناجي للمصلحة إن كان هناك أكثر من ثلاثة

* يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفيه دليل على جواز التناجي للمصلحة، إن كان المجلس عامرًا بأكثر من ثلاثة، وقد كان غرض يوسف عليه السلام تهيئة أخيه لِـمَا سيحدث فيستعد لذلك نفسيًا، ولئلا يتأذّى بتوجيه التهمة له وهو يعلم أنه بريء، وكل ذلك دليل على لطف يوسف عليه السلام وحكمته، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وذلك من فضل الله اللطيف بعباده يؤتي فضله من يشاء: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

* ويبدو أن يوسف عليه السلام لـمَّا جاؤوا بأخيهم، أوفى ما وعدهم فجهزهم بجهازهم، إلّا أنه دسَّ السقاية؛ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ويبدو أنها شيء يسقى به، وكان يستخدمها كذلك في كيل الطعام، أوفي تقدير مكاييل الدولة، وهذا هو الأليق بما يسقى به الملك؛ ولهذا قال القائل: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: صاع الملك.

* وتأمل لما كان أمر رد البضاعة إلى رحالهم أمر فتيانه ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]، لكن لما جاء شأن الصواع جعله هو في رحالهم، ولم يذكر في القرآن ما يشعر بأنه وكل به أحدًا؛ لأن الكتمان هنا مطلوب،

فلم يأمر بذلك أقرب الناس إليه، إذ لا حاجة، ولا مصلحة بل قد يضر ذلك بتدبيره، بخلاف وضع البضاعة في الرحال، فلكل حالة ما يناسبها.

* ويبدو أنه ما إن تمّ وضع السقاية حتى أعلم يوسف عليه السلام بعض جنده بفقد الصواع، وأمرهم بالبحث عنه، ويبدو أن قرائن الأحوال أشارت إلى أنه لا يمكن أن يكون الآخذ غير هذه العير، إما لعدم وجود غيرهم أو لأن يوسف أومأ إليهم، والحاصل أنه قام مناد يكرر النداء معلمًا: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، وتأكيده للأمر يشعر بأنه لم يكن في المكان غيرهم، والمؤذن رغم اتهامه لهم -لِمَا احتفَّ بالموقف من قرائن- فإنه لم يحدد أحدًا بعينه وفي ذلك نوع من الحكمة.

من الأساليب المهمة في التربية وفي التعامل مع الناس إعطاءَ المخطئ فرصة ليعود عن خطئه

* وتلحظ في هذا الحوار من الأساليب المهمة في التربية وفي التعامل مع الناس إعطاءَ المخطئ فرصة ليعود عن خطئه، فيوسف عليه السلام لم يعدهم بالعفو فقط عن الجاني إذا ردّ الصواع، بل وعدهم بإعطائهم حمل بعير بدلًا منه، وأكد لهم الوعد، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ وفي هذا دليل على أن الغرض ليس اعتراف الجاني، لكن المهم إصلاح ما أفسده وتشجيعه على التخلص من الذنب.

ولأهمية هذه اللفتة التربوية أضرب مثالًا: لو أخذ أحد الأبناء شيئًا من المال خفية، فحاول الأب دفعه للاعتراف فسيحاول الابن الإنكار ما أمكنه ذلك، فيجمع بين السرقة والكذب، بينما لو أشعره الأب بأن المهم بالنسبة له معالجة الخطأ، وأنه سيتجاوز عنه على ألا يعود، فسيستجيب الابن لطلب أبيه، وربما بين له الدافع لإقدامه على مثل هذا التصرف، وفي ذلك عون للأب على استئصال المشكلة من جذورها.

* ويبدو أن في شريعة أهل مصر كان المسروق يؤخذ ويعاقب السارق دون أخذه، أما في شريعة يعقوب عليه السلام وهي شريعة إلهية فكان يؤخذ السارق. ولو عمل

حكم السرقة في الشرائع الماضية

يوسف عليه السلام بشريعة أهل مصر لـمَا تم مراده وهو أخذ بنيامين؛ لذلك حاور إخوانه وأنزل السارق على حكمهم، توطئة لأخذه بإقراراهم، ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾.

* وكان من كيد الله ليوسف عليه السلام أن ألهم الناظر تأخير النظر في وعاء أخيهم الصغير ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، ولو بادر إلى وعاء أخيهم ثم استخرجه منه فربما أثار بعض الشك؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي والتعقيب ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

السكوت قد لا يكون إقرارًا

* سكت بنيامين ولم يدافع عن نفسه، ومن هنا ينبغي أن نلحظ أن المتهم قد يراعي بعض المصالح، أو يحاول دفع بعض المفاسد فيسكت ولا يدافع عن نفسه، لذلك ليس بالضرورة أن يكون كل من لم يبرئ نفسه مقرًا على نفسه بالتهمة ولو عظمت؛ لذا فإذا اتهم أحد معروف بحسن السيرة فينبغي عدم العجلة في الحكم عليه بأنه اقترف ما اتهم به فعلًا، فيسع المرء السكوت عن الإدلاء بحكم غير مكلف بالبت فيه، ولا مصلحة له من الخوض فيه، بل ربما ترتب على نطقه وتعنيه ما لا يعنيه خطل كان في غنى عنه.

إحكام العاطفة بعِقَال العقل، وتوجيه العقل بنور الوحي

* لم يعبأ يوسف عليه السلام -على إحسانه وكريم خلقه- بطلب إخوانه، ولم يستجب لرجائهم بأخذ أحدهم بدلًا من بنيامين مراعاة لحال أبيهم رغم أنه أشفق بأبيه منهم؛ لأنه لا مجال للعاطفة إذا قرر حكم العقل أنَّ المصلحة في خلافها، فإذا كان مع ذلك وحي أو أمر شرعي فلا خيرة إلاّ فيما قضى الله تعالى، والقاعدة التي ينبغي أن يُستمسك بها إحكام العاطفة بعِقَال العقل، وتوجيه العقل بنور الوحي.

* قال يوسف عليه السلام لإخوانه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقل: من سرق؛ لأنه يعلم أن أخاه لم يسرق وإن وجد الصواع في

رحله، فكان دقيقًا في عبارته، فهو لم يتهم أخاه كما لم يثر الشكوك حول قضية السرقة، وإنما وصف الواقعة كما رآها الجميع.

من الظلم أخذ البريء بجريرة قريب

* إن أخذ الناس بجريرة غيرهم من أشنع الظلم، وهو تعدٍّ على حرمات الله، وهو دأب الظالمين في كل زمان؛ ففي صدر الإسلام قاطعت قريشٌ بني هاشم ثلاث سنين، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن رسول الله ﷺ منهم، وفي زماننا هذا يعاقب اليهود ذوي المجاهدين فيهدمون بيوتهم، وربما أوسعوهم أسرًا وتقتيلًا.

والمؤسف أن مثل هذا يحدث في كثير من بلاد المسلمين، فإذا أجرم أحدٌ أخذوا بجريرته من تحدَّث معه، ومن أشار إليه فضلًا عن الأهل والإخوان، والله المستعان، وهو أمر متوقع؛ لأن من لم يحتكم لشرع الله تعالى، احتكم لشرعة الطواغيت والعياذ بالله.

رفع الدرجات وعلاقته بالعلم

* ثم ذُيل الكلام بقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ لأن في القصة رفع درجة يوسف عليه السلام في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله، ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف عليه السلام في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه، ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف عليه السلام وحنوه عليهم، وقد عبر عنه بالفعل المضارع (نرفع)؛ ليفيد الحال والاستقبال إشعارًا بأن تلك سنة الله التي خلت في أوليائه، وهي السنة التي سيسلك بها من استمسك بشرعه إلى يوم الدين.

* ثم عقَّب التذييل الأول بتذييل ثان فقال: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾؛ ليشعر بأن رفعة الدرجات متعلقة بالعلم، وليثبت أن أقصى رتبته لله الكبير المتعال؛ ولهذا عبّر بالفوقية ليشعر الظاهر بأن كل صاحب علم فوقه عليم

فضيلة العلم وأنه أفضل من الصورة الظاهرة

هو الله، كأنك تقول: الله فوق المخلوقات على تفاوتها، فكذلك علم الله فوق علم المخلوقات على تفاوتها.

وفي هذه الآية بيان فضيلة العلم: علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف ـ بسبب جماله ـ حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

كيد الله ليوسف

* قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وقد نسب الله سبحانه الكيد إلى نفسه، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، وكما دل عليه قوله سبحانه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢]، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقوله سبحانه في قصة صالح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النمل: ٥٠]، والمكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد فإن كان ذلك الغير يستحق ذلك الشر كان مكرًا حسنًا، وإلا كان مكرًا سيئًا، بل إن كان ذلك الشر الواصل حقًا لمظلوم كانِ ذلك المكر واجبًا في الشرع على الخلق، وواجبًا من الله بحكم الوعد إن لم يعف المستحق، والله سبحانه إنما يمكر ويستهزئ بمن يستوجب ذلك فيأخذه من حيث لا يحتسب، كما فعل ذلك الظالم بالمؤمنين، والسيئة ما تسوء صاحبها وإن كان مستحقًا لها، والعقوبة ما عوقب به المرء من شر.

* يوسف الصديق عليه السلام كان قد كِيدَ غير مرةٍ: أولها: أن إخوته كادوا له كيدًا حيث احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه كما دل عليه قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ

إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾[يوسف:٥]، ثم إن امرأة العزيز كادت له بأن أظهرت أنه راودها عن نفسها، وكانت هي المراودة كما دل عليه قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٨]، ثم كاد له النسوة حتى استجار بالله في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٤]، حتى إنه عليه السلام قال لـمَّا جاءه رسول الملك يستخرجه من السجن: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٠]، فكاد الله ليوسف بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة

* إذا كان المراد بالكيد فعلًا من الله سبحانه بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أمورًا يحصل بها مقصوده بالانتقام من الظالم وغير ذلك، فإن هذا خارج عن الحيل الفقهية المحرمة، بل في قصة يوسف تنبيه على أن من كاد كيدًا محرمًا؛ فإن الله يكيده، وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة.

* من كيد الله لعبده أن يلهمه سبحانه أمرًا مباحًا أو مستحبًا أو واجبًا يوصله به إلى المقصود الحسن، فعلى هذا يكون إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل من كيده سبحانه أيضًا.

* فمن الكيد إذًا ما هو مشروع، لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تستحل به المحرمات أو تسقط به الواجبات، فإن هذا كيد لله، ودين الله هو المكيد في مثل هذا، فمحال أن يشرع الله أن يكاد دينه.

* وخلاصة ما سبق هو أن الحيلة الشرعية هي من نحو الكناية والتعريض وغيرها من المباحات ولو في بعض الأحوال شريطة أن يتوسل بها إلى قصد صواب، وأما المحرمة فقد يكون القصد فاسدًا، وقد تكون الوسيلة فاسدة، فهذه لا تجوز بحال اللهم إلّا إن كانت من باب الضرورة، أو من قبيل ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما؛ لِمَا تقرر من جواز دفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى ولو كانت هذه المفسدة الصغرى أمرًا محرمًا لا يسوغ ابتداءً، وإن كان الناس قد توسعوا في ذلك حتى وقع كثير منهم في الحيل المحرمة.

تلخيص التفريق بين الحيلة الشرعية والمحرمة

* سمى الله تعالى سمى حكم الملك دينًا؛ لأن الدين هو كل ما دان به الإنسان وخضع له، حقًا كان أو باطلًا؛ لذلك جعل الله تعالى طاعة الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم عبادة لهم، فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، فكذلك طاعة الملك في التحليل والتحريم ثم ترتيب الجزاء والحساب على ذلك دخول في دينه، وعبادة له، حاصلها ترك دين الله للدخول في دين الملك.

الحكم دين

* وإذا كان الأمر كذلك، فإن فرية فصل الدين عن الدولة التي جُعلت في عصرنا هذا دليلًا على الحرية واحترام المعتقدات خدعة ماكرة، وكذِب يُغرِّرون به السذّج، فإن ما يسمونه علمانية هو في حقيقته دين يتحاكمون إلى أسسه، ويحلِّلون ويحرمون بناء عليه، وهم بدعواهم هذه يريدون أن يُقصوا شريعة الله ودينه، ويُعبِّدوا الناس لهوى العلمانية؛ ليُحكموا العقول القاصرة في جوانب الحياة المختلفة.

فصل الدين عن الدولة خدعة ماكرة



من أخلاق الأنبياء السامية

الحلم عمن أساء

* ومن الدروس التنبيه على شيء من أخلاق الأنبياء السامية؛ لنتأسى بهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقد نيل من يوسف عليه السلام بغير بيّنة أو برهان، ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، وقد كان في مقام يسعه فيه العقاب بحجة السرقة، بل في مقدروه أن يأخذ ولو بغير حجة، لكنه حَلُم فلم يظهر مجرد تعليق خطر بباله، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]، وهذا سمو في الأخلاق، وضرب من الإحسان، ومرتبة من مراتب الصبر والصفح.

التحذير من إطلاق اللسان

* ومن الدروس الإشارة إلى أن اللسان ما لم يحفظه صاحبه فقد يورده موارد الهلكة في الدنيا، وقد يكبّه في النار على وجهه يوم القيامة، فإخوة يوسف نالوا منه في هذا المقام وهم لا يشعرون، وحديثهم أذى وإساءة، فلا يقعن امرؤ في عِرض أحد من الناس عن ظن وتهمة فتلحقه الأذية في الدنيا، فإن سلم تعرض للوعيد بأن يمسه العذاب يوم يقوم الحساب.



مشهد المؤمنين حال الأسى

* يقول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾، ظاهر الآية يفيد بأن محاولات كثيرة بُذلت ومفاوضات متعددة حصلت في شأن بنيامين، ولعل آخرها ما قصه الله تعالى من قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨]، فحتى التكرم والتفضل والإحسان بأخذ آخرَ جُوبِهَ بالرفضِ التام. فلما وجدوا حزم يوسف عليه السلام ورفضه، يئسوا واليأس نقيض الرجاء، فهم قد انقطع رجاؤهم من العزيز في تلك الحال.

* وعندها انفردوا عن الناس متناجين، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، ويبدو أنه كان أكثرهم غمًا بما حدث، وأكثرهم تأسفًا على التفريط في يوسف، لقد بلغ به الحرج حدًا جعله يستحيي من لقاء أبيه بعد الميثاق الذي آتوه إياه على الحفاظ على أخيهم، ولعل الجرم الأول أحدث أثرًا كبيرًا في نفس هذا الكبير، والأغلب أنه أكبرهم عقلًا، فلم يطق مع اجتماع هذا الأمر مراجعة أبيه.

* أوضحت الآيات شديد حرصهم على الوفاء بعهدهم مع أبيهم، حتى بلغ بهم الأمر سؤال العزيز أخذ أحدهم إحسانًا عوضًا، وهذا مما يشعر القارئ بصدقهم في توبتهم، فإن التلاوم والحرص على حفظ أخيهم، وذكرهم أمر يوسف

بلسان الندم ووصف التفريط، كل هذا يشعر بأن حالهم قد انصلح، ولا يلزم من انصلاح الحال بلوغ الكمال، ولكنها حال خير من حال، كيف لا وهم أبناء نبي كريم؟! وقد قال بعضهم: إنهم نُبِّئوا بعدُ، وليس على هذا دليل كما قال الحافظ ابن كثير[1].

من علامات صدق التوبة عند إخوة يوسف

* ويبدو أن الشورى كانت ديدن أبناء يعقوب عليه السلام ، ففي المرة الأولى لـمَّا هموا بالتخلص من يوسف تشاوروا ثم اجتمعوا على رأي واحد، وتحملوا تبعاته مجتمعين، وفي هذه المرة أيضًا قلّبوا الأمر سويًا ثم استقروا على رأي واحد ونفّذوا ما اتفقوا عليه.

الشورى عند أبناء يعقوب وأهميتها

ولا شك أن أصحاب العقول السليمة، والنفوس السوية يميلون إلى التشاور مع غيرهم في كل أمر ذي بال؛ لأن الذي يصدر عن رأي واحد غير الذي يستفيد من قدرات عدد من العقول وتجارب عدد من الناس.

والسنة النبوية مليئة بالأمثلة الدالة على حرصه ﷺ على استشارة أصحابه وأزواجه في دقيق الأمور وجليلها، ورغم كل هذا الإرث النبوي الضخم الذي طولبنا بالتأسي به، فمجالس الشورى في جلّ البلاد الإسلامية صورية لا تستجلب آتيًا ولا تذهب مقضيًا. والأدهى من ذلك أن ظاهرة الاستبداد تعدّت لتقتحم الحركات الإسلامية، التي ربما عانى كثير من الحادبين عليها من الاستبداد وانفراد شرذمة بالرأي، وربما عدم قبول النصح والمشورة، وما ينبغي هو أن تكون الشورى ديدن كل مؤسسة تريد أن يُكتب لها النجاح، ابتداء من الأسرة وانتهاء بالدولة. إن العقلية الفرعونية: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] هي التي ضيعت

منهج النبي ﷺ في الشورى وواقع المسلمين

ينبغي أن تكون الشورى ديدن كل مؤسسة تريد أن يُكتب لها النجاح، ابتداء من الأسرة وانتهاء بالدولة

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٢).

العباد، وأضلت الناس عن سبيل الرشاد.

* وقولهم لما رجعوا إلى أبيهم: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف:٨١]، مشعر بشيء من الحنق على أخيهم؛ ولهذا نسبوه إلى أبيهم ﴿ ٱبْنَكَ ﴾ ولم يقل قائلهم: (أخانا)، مع أنهم عندما طلبوا صحبته من أبيهم قالوا: (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا) [يوسف: ٦٣]؛ ليشعروه بحرصهم عليه، ورعايتهم لموجب الإخوة، وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ اعتذار، كأنهم قالوا: لو علمنا بشأنه لرعينا أمره وحفظناه إما بتركه أو بمنعه.

* وقولهم: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي: كل من حلَّ القرية، والقرية لفظ يتناول المحال (الأماكن) التي فيها، وكذلك الحال بتلك المحال بها من إنسان ونحوه، فأطلقوا اللفظ وأرادوا به الحالَّ لا المحالّ، كأنهم قالوا: اسأل كل شيء فيها ناطقًا أو غير ناطق فإنه يصدقنا، لاشتهار الخبر.

ولـمَّا كان سؤال القرية قد يشق أو يتأخر بإرسال الرسول، أردفوا بتوثيق آخر: ﴿وَٱلْعِيرَ﴾، وهو اسم للإبل التي تحمل الميرة، ولفظها مشتق من العير وأصله دال على مجيء وذهاب، وهذا لايكون بغير ربها، وعبروا بهذا اللفظ إيغالًا في التأكيد كسابقه، ثم أكدوا صِدقَهم ثالثة بـ(إنَّ)، ورابعة بالجملة الاسمية، وخامسة باللام، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

* ومع عظيم حرقة يعقوب عليه السلام لم يقاطع ولم يرفع صوتًا، بل انتظر فراغهم ثم قال كلمة هادئة تنمّ عن صبر جميل، وعقل رجيح، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣]، أي: ليس الحق كما ذكرتم، ولا يلزم من ذلك رميهم بصريح كذب وتهمة، فلو كان ذلك كذلك لَـمَا أمرهم - وهم الكاذبون عنده، المتهمون بالجرم - أن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه، فلعل مراده: جانبتم الحقيقة وقد زيّنت

لكم أنفسكم حمل أخيكم نحو أرض مصر، أو صواب ما ذكرتم.

حقيقة الصبر الجميل

* ثم قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، والصبر الجميل هو الصبر الذي ليس معه تأفف ولا تشكٍّ، وبعد أن أخبرهم بأنه صابر محتسب أعرض عن اللوم والتقريع والعتاب، **وذلك من تمام عقله** عليه السلام، بل في كلتا المرتين ما قرّع أبناءه وما عاقبهم، بل وجَّههم لِـمَا ينبغي فعله لحل المشكلة وتدارك الخطأ، فِعلَ الحكيم الحازم رغم المصاب العظيم الماثل.

حسن الظن بالحكيم العليم

* وقبل أن يقدم على التوجيه أعلن حسن ظنه بالله؛ ليقويه في نفوسهم، قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ أي: يوسف، وأخوه، وكبيرهم، فتلك عاقبة الصبر الجميل، والله تعالى عليم بالأمور على حقائقها، حكيم فيما يقضي ويقدّر على العباد.

الأسف والحزن لا ينافي الصبر الجميل

* ويبدو أن يعقوب عليه السلام كان صافيَ النفس، رقيق القلب، سريع الدمع، رجلًا أسيفًا، فلم يتمالك بعد تلك الكلمات عبرته، فانصرف عن جهتهم، وهو يقول وهم يسمعون: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، وكأنه لـمَّا ذكر الثلاثة: الكبير والصغير ويوسف، خفف عنه أمرَ الأوّلين علمُه بمكانهما، أما يوسف فعلى عظيم حبه له لا يعرف عنه ما عرف عنهما، فناسب أن يعلن الأسف الصريح -وهو أشد الحزن- على أحقّهم به وأحبهم إليه، وقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ لا ينافي الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه؛ لأنه من باب الإخبار بما في النفس من قبيل قول نبينا ﷺ: **«وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**[1].

* ثم أخبر الله تعالى عن تغيُّر بدني أصاب يعقوب جراء الأثر النفسي، فقال: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف:٨٤]، وهذا إخبار بفقد القدرة على

---

(١) «صحيح البخاري» ١/ ٤٣٩ (١٢٤١)، وغيره.

الإبصار، لا مجرد الضعف، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: مكظوم، يعني: مُمسَك بصرُه محبوس عنه، وهذا متوجه، وبالأخص إذا روعي ما جاء قبيلها، أو يكون المعنى: مملوء همًّا وحزنًا لا يبث شكواه إلى بشر، وهو صحيح أيضًا.

الحزن شعور طبعي يعتري الإنسان السوي إن وجد سببه

* وإذا كان الله حكيمًا عليمًا فليس لنا إلّا الصبر والرضا والتسليم، ولا يعارض الحزن ذلك، فالحزن شعور لا بد أن يعتري الإنسان السوي إن وجد سببه، كالألم والغضب، بل كالجوع والعطش، ولـمّا كان الحزن من عوارض الطبع البشري، لم يكن يومًا من الدهر محرمًا في شريعة سماوية طالما كان مقتضيه صحيحًا؛ ولهذا قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤]، وقال لخير النبيين ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

الحزن لا يختص بضعفاء الإيمان أو الفجار

فليس الحزن مختصًا بضعفاء الإيمان أو الفجار، بل هو مختص بمن ركِّب فيه الإحساس، فلا غضاضة في الحزن إذًا، فقد حزن الأنبياء وحزن الصِّدِّيقون وحزن الصالحون، قبل وبعد يعقوب عليه السلام.

التفصيل في حكم الحزن وحالاته.

إن الحزن عارض بشري، يعرض للتقي والفاجر، والمسلم والكافر، فإن كان منشأ الحزن أمرًا لا يد للمرء فيه، كقضاء كوني نزل فأصابه، أو كان منشؤه مشروعًا كجهاد قتل فيه ابنه، كان صبر المسلم خيرًا له، وكان حزنه سببًا في تكفير سيئاته، فعن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له»**[1].

---

(١) «صحيح مسلم» ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

أما إن كان منشأ الحزن معصية فإنه إما أن يحزن على مقارفتها، أو على فوتها، فإن حزن على مقارفته لها فهذا من جنس الأول؛ لأنه متعلق بالندم على الذنب وهو أحد أركان التوبة، وأما إن كان الحزن على فوتها فذلك حزن محرم، وأثره المترتب عليه مؤاخَذٌ به العبد، والذي يحزن على فوت المعصية يشبه من عقد العزم على فعلها وليست عنده أسبابها.

إن الحزن مصيبة من جملة المصائب؛ ولهذا قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة: «**ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه**»(١)، وإذا كان كذلك فإن على المسلم أن يدافعه -أيًا كان منشؤه- ما أطاق، أو يكظمه ما استطاع، كما إن عليه ألّا يخرج به الحزن -وإن كان منشؤه مباحًا أو محمودًا- عن حدود الشرع، فهذا ممنوع، فإن كان الذي يجوع لا يسوغ له أن يأكل لحم الخنزير، بل عليه أن يتخير من الحلال الطيب، مع أن لحم أكل الخنزير قد يكون سببًا للشبع، فكذلك المحزون ليس له أن يُذهِب حزنه بمحرم. ولئن قتل الجائع نفسًا بحجة الجوع، أو قارف جرمًا آخر ليس سببًا للشبع بحجة الجوع، كان ذلك من القبح بمكان أظهر. فكذلك الذي يحزن ليس له أن يتكلم بما لا يليق، وليس له أن يشق ثوبًا أو يلطم وجهًا، أو يفعل فعلًا يخرج به إلى حد التسخط والجزع، فتلك أفعال محرمة، ولا علاقة لها بدفع الحزن، كحال من يجوع فيقارف جرمًا ليس سببًا للشبع، بل تلك الأفعال مع الحزن أشد حرمة؛ لِمَا تضمنته من الحرمة ولِمَا اشتملت عليه من تسخط قدر الله.

لا يسوغ للمحزون وإن كان حزنه مباحاً أن يخرجه عن حدود الشرع

---

(١) «صحيح البخاري» ٥/ ٢١٣٧ (٥٣١٨)، ونحوه عند مسلم.



لـمَ حزن يعقوب كل هذا الحزن على يوسف؟

* ولعل سؤالًا يرد هنا: لِـمَ حزن يعقوب كل هذا الحزن وقد علم من رؤيا يوسف أنه يلقاه؟ وجوابه أن يوسف قد رأى الرؤيا وهو صغير، فربما أخطأ، وقد يُجاب: كان يرجو أن يكون يوسف له خير عضد من البشر ونصير؛ لما توسم فيه من الخير، فلما فقد تلك الطاقة وذلك العضد،تأسف على فقده وإن علم أنه في خير حال.

* وبرغم شدة حزنه فقد اجتمع في يعقوب عليه السلام إيمان راسخ، وقلب ثابت، وعقل راجح، وخلق ساجح، فلا تعجب إن قال في تلك الحال التي تتضعضع فيها الأركان، وتخور عندها القُوى، وتذهل من هوْل صدمتها العقول، لا تعجب إن قال بلسان الواثق في الله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

ثقة يعقوب في الله وبثه الحزن إليه

* ولعل أبناء يعقوب عليه السلام أشفقوا على أبيهم وخافوا الحال التي بلغ أن تودي به، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥]، وغرضهم من هذا الكلام تنبيه عزيز عليهم وهم مشفقون عليه.

لكنه كان يعلم من الله ما لا يعلمون، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، قصر وحصر فلا شكوى لمخلوق، بل حزني الذي يُشتكى فلله.

االدنيا دار بلاء ومن رأى مصاب غيره حمد القدر

* إن الدنيا دار بلاء، فالناس كلُّ الناس مُبتلَوْنَ فيها بالضراء أو السراء، وكلما نظر صاحب المصيبة إلى حال غيره من المصابين، هان عليه ما هو فيه، ورأى لطف الله تعالى به، والمؤمن أولى الناس بذلك، فإنه مهما كان المصاب، فهو على غنم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١)، بل مع الصبر على الضراء تراه يحمد الله أن جعل مصيبته في دنياه لا

(١) سبق تخريجه.

في دينه، بل ترى بعضهم يشهد في ذلك المقامِ المِنَّةَ، فيعلم أنه وإن أعسر شهرًا فقد أيسر دهرًا.

الفرار إلى الله ببذل الأسباب لا ينافي الصبر

* ولاينافي الصبر والفرار إلى الله بذل الأسباب بل يقتضيها؛ فلذلك قال يعقوب بعدها: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، فكل عسير إذا يسره الله يهون، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، لايقعدنكم اليأس، تحركوا وامضوا، فابحثوا عن أخبار من تلومونني في ذكره، وعن أخيه.

* إن يعقوب عليه السلام لقي من الإنكار ما لقي حتى من الأبناء، وربما رأى من لا يبصر بنور الوحي أن رأيهم هو الرأي، إلّا أن يقين يعقوب وصبره عكسا القضية، فإذا بالـمُنكِر المخالِف منذ قليل يتوجه إلى البحث عما أنكر لـما رأى الصبر واليقين ماثلَين أمامه، وإننا بحاجة في واقعنا المعاصر إلى أهل علم راسخين ينظرون بنور الله في الأمور، ويثبتون، فلا تصرفهم عن ذلك شناعة شنّعت، ثم يبصِّرون بنور الله أهل العمى عندها يجعل الله منهم أئمة وقادة لسفينة الحياة، وعندها يرسو الناس عند شاطئ السلامة وبر النجاة، بفضل اتباعهم الذين يعلمون من الله ما لا يعلمه كثير من الناس.

التحسس والفرق بينه وبين التجسس

* أمر يعقوب بنيه أن يذهبوا فيتحسسوا، والتحسس مبالغة في التطلب والتعرف، ومن الفروق بينه وبين التجسس ما قاله ابن كثير رحمه الله: «التجسس غالبًا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير كما قال عز وجل إخبارًا عن يعقوب أنه قال: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر»[1].

(١) «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٧١.

التفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن ويحفزه للعمل ويورثه الطمأنينة وراحة البال

* والمقصود أن اليأس ما دَبَّ إلى نفس يعقوب قط رغم ما قيل له وما لقي مع طول المدة وبُعد العهد بيوسف، بل كان مع ذلك يستشرف الأمل ويبعثه في نفوس الناس، وليس هو أملًا مبنيًا على الأوهام والتخدير والقعود، بل أمل إيجابي يحض فيه على الحركة والعمل الدؤوب.

إن التفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفزه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس وراحة القلب. والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنه يتطلع للفرج الذي يعقب كلّ ضيق، ولليسر الذي يتبع كل عسر.

وقد كان نبينا ﷺ يبشر أصحابه بالظهور على الكافرين في جزيرة العرب وما جاورها في أوقات كان الواحد منهم لا يأمن على حياته وهو في بيته، فكانت النتيجة تسابُقهم لرفع راية الإسلام في كل البقاع، بنفوس منشرحة قوية واثقة في نصر الله.

إن سُمّ التشاؤم الذي يحاول المنافقون دسَّه للمنتمين لهذا الدين له ترياق جدير بإبطاله، ألا وهو تقوية اليقين بمعية الله تعالى وتوفيقه للمتوكلين الصادقين في صفوف المسلمين، وتعميق الإحساس بقدرة الله تعالى وعظمته في نفوسهم، وتبشيرهم ببوادر النصر التي تلوح في الأفق. ويكون ذلك بذكر حقائق الواقع الماثل، ففي فلسطين مثلًا، رغم تنكيل الصهاينة الغاصبين بالمجاهدين، ورغم تخاذل المسلمين عن نصرتهم، رغم ذلك ينطق تسلسل الأحداث بأن الغلبة لدين الله، وأن النصر لجند الله. فقبل ثلاثين سنة فقط لم تكن في ساحة المقاومة غالبًا راية تعرف سوى رايات الشيوعيين والعلمانيين ودعاة القومية العربية، وأشباههم مع بعض عملاء الصهيونية، أما اليوم فيشد أبناء فلسطين على أيدي المجاهدين ويقدمونهم لقيادة البلاد، ورعاية مصالح العباد.

وقبل أقل من عشرين سنة كانت الراية المرفوعة: هي الأرض مقابل السلام، وكان القادة يتسابقون للقاء الصهاينة ومحاورتهم، بل على الأصح تنفيذ شروطهم وإملاءاتهم، واليوم يلتف أبناء فلسطين حول المجاهدين الذين أعلنوا أن الجهاد ماض حتى تطهر أرض الإسراء كلها من كل الصهاينة المعتدين.

وقبل عشرين سنة فقط كان المظهر العام في فلسطين مثله مثل كثير من الدول العربية التي ابتليت بالتغريب والانحلال، واليوم يتجه الناس نحو الإسلام، بل صارت سجون الصهاينة كتاتيب ومعاهد يحفظ فيه الأسرى كتاب ربهم.

إذًا فالواقع يصدق الشرع ويقول: إن الدين منصور، ألا بعدًا لليأس والتشاؤم، فلنأخذ بأسباب النصر، ولنثق بأن الذي يخرج اللبن من بين الفرث والدم قادر على إخراج النصر من رحم البأساء والضراء. أما الذي يدَّعي أنه متفائل ويقعد عن العمل، فهو عاجز لا متفائل، وقد روي في الحديث: «**الكَيِّس مَن دان نفسه وعمل لِـمَا بعد الموت، والعاجز مَن أتبَعَ نفسَه هواها وتـمنَّى على الله**»(١).



(١) «سنن الترمذي» ٤/ ٦٣٨ (٢٤٥٩)، ورواه غيره، وهو حديث ضعيف، تنظر «السلسلة الضعيفة» للألباني ٥/ ١/ ٤٩٩-٥٠٠ (٥٣١٩).

ظهور عاقبة التقوى جهارًا

دلالات عودة الإخوة وطلب الصدقة

* وصّى يعقوب عليه السلام بنيه ألا ييأسوا من روح الله وأن يتحسسوا من أخويهم، فخرجوا من عنده وليس لهم ما يعتمدون عليه غير الله تعالى، وكفى بالله وكيلًا، فلما لقوا العزيز، استهلوا أمرهم بتقديم طلب، بدؤوه باسترحام، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، وأرادوا أن يبينوا عظيم أثرها على خاصة أنفسهم ومن يليهم فعبروا بالضر المشعر بذهاب نفع وتلف لحق بعض الأنفس، ثم بعد هذا الاسترحام قدموا طلبًا حاصله: جئنا بعروض زهيدة قليلة - وهي المزجاة يرغب عنها فتدفع - فأتمّ لنا وأكمل المكيل المقابل لها، وزدنا فوق حقنا صدقة منك علينا.

هل يجزي الله المتصدِّق إن كان كافرًا؟

* قد يُقال: كيف طلب أبناء يعقوب عليه السلام من العزيز أن يتصدق عليهم بقولهم ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ وحضُّوه على الصدقة بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، مع أنه من جملة أهل مصر وينبغي أن يكون دينه مغايرًا لدينهم، والكافر يجعل الله عملَه يوم القيامة هباءً منثورًا؟ والجواب: أن الله يجزي المتصدقين ويجزي المحسنين مسلمهم وكافرهم، أولئك في الدنيا والآخرة، وهؤلاء في الدنيا حيث يعجل الله لهم ثواب إحسانهم فيها.

* ولعل مما يظهر للمتأمل أن إخوة يوسف أرادوا مع مضمون هذا الكلام التوطئة والتهيئة بالاستعطاف للمساومة في غرض آخر، فهم ما خرجوا من ديارهم إلّا ليتحسَّسوا عن يوسف وأخيه أولًا، فكأنهم أظهروا الفاقة، وما

أصابهم من الضر وأهلَهم، وشدةَ الحاجة المحِلَّةِ طلبَ الصدقة؛ ليقولوا بعدها: إن هذا الذي نحن فيه أهون عندنا من أخذ أخينا، فإن كنت محسنًا وهذا دأبك فخذه ولكن أرجِع إلينا أخانا.

إيثار حق الله على حق النفس مع القدرة من اخلاق الأنبياء

* وكأني بيوسف عليه السلام لـما رأى حالهم، وفهم مغزاهم، وسمع من أخبار أهلهم، رَقَّ لهم، فرأى أو أوحي إليه كشف الأمر، فنزع القناع وقال لهم: ﴿.. هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩]، وهذا على الأقرب تذكير وعتاب رقيق، فليس السياق سياق محاسبة وإنكار، فالعلم فيه حقيقة مرادة، والمعنى: هل علمتم عاقبة ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ إلى أيِّ حال جرتكم؟ وأين ذهبت بأبيكم؟ قال الزمخشري: «كان كلامه شفقة عليهم وتنصحًا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبًا؛ إيثارًا لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام، الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها»[1]، ثم كأنه أردف ذلك بالاعتذار عنهم فقال: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾، وهذا مُشعِر بانصلاح حالهم، سمّاهم جاهلين أوان ذلك الفعل، أي: مذنبين.

* وفي قوله: ﴿بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ما يشعر بأن الإخوة أساؤوا لأخيه وقد بث له بعض ما وجد، ولو لم يكن من أذاهم له إلّا حرمانهم له من شقيقه يوسف، وأخذهم له من أبيه وتجشيمه عناء السفر لأجل كيل بعير لكفى، غير أنك تستشف من كلمة يوسف، أخبار هموم وأشجان أخرى ضرب عنها الذكر صفحًا قد بثت إليه.

* ويبدو أن تلك الكلمات نزلت كالماء البارد على الحضور، فلا تسأل عن دهشة الحاشية والجمهور، فحق للإخوة أن ينطقوا متعجبين: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾! ولـما تضمن قولهم سؤالًا تعجبيًا مؤكدًا بمؤكدين، أجابهم

(١) «الكشاف» للزمخشري ٢/ ٤٨١.

عليه السلام بجواب تضمن تأكيدين الأول قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ فلم يقل: نعم، بل صرح بالاسم المظهر، وعرفهم بأخيه (وَهَذَا أَخِي)، ثم قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

تعريف الصبر شرعاً

* وهنا يرد السؤال الكبير: كيف ذلك، والعادة تقضي بموتك، أو بقائك في الرق عبدًا ذليلًا لا في الملك رأسًا عزيزًا، فكان الجواب الذي يرفع العجب ويوضح السبب وهو ملازمة التقوى وملازمة الصبر: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وتقوى الله أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، وهذا يقتضي اجتناب النهي، بجعل حائل بينك وبينه يمنع من التعرض له، والتزام الأمر من لازمه.

وأما الصبر فهو حبس النفس على أمر الله، وعن معصية الله، وعن الجزع عند قضاء الله؛ ولهذا ناسب أن يُوصَف محقِّقُ تلك التقوى وذلك الصبر بالإحسان: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، كتب ذلك على نفسه سبحانه رحمة منه وفضلًا فلا يذهب عنده جزاء العمل، ولا يفوت على المحسن عوض إحسانه.

تقديم التقوى على الصبر

وأما تقديم القرآن التقوى على الصبر هنا، خلافًا لمواضع قدم فيها تصبروا على تتقوا، فلعله لمناسبة حال نبي الله يوسف الذي اتخذ الوقاية، ثم صبر بعد أن جاءه أمر الله.

* قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ آثره عليهم فجعله عزيز مصر ذا الجاه والسلطان، وآثره عليهم بما حَبَاه من كريم الأخلاق وحسن الخصال، وآثره عليهم بالتقوى والصبر، وآثره عليهم بالوحي والنبوة، فيشمل ذلك الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من نعم، والإيثار في الآخرة بما آتاه الله من النبوة، فها هنا قالوا مُقرِّين معترفين بالذنب مشيرين إلى حسن التوبة وصلاح الأمر: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، فعبّروا بالماضي وأكّدوه.

شمولية إيثار الله ليوسف خيرات الدنيا والآخرة

* قال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، ومن كرمه أنه لم يحوجهم إلى التصريح بطلب العفو بل بادر به أول ما عرَّضوا، فإن قولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ تعريض بطلب العفو.

الكريم لا يحوج الناس إلى التصريح بطلب العفو بل يبادر به بمجرد التعريض

* **عفو يوسف عليه السلام في مثل هذا الموقف وحده درس من أعظم الدروس**، إنه عظة وعبرة لأصحاب الأنفس الموتورة، والأحقاد المستورة، وما نالهم من الأذى معشار ما نال يوسف عليه السلام، انظروا إلى العزيز في ساعة الاقتدار، ومن آذاه في موقف الانكسار، وفي إمكانه أن يأخذه بذنبه أخذ الجبابرة، فإذا به يعرض حتى عن اللوم والتوبيخ فـ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾، تجاوز عن كل ما كابده بسببهم عشرات السنين؛ وفوق ذلك سأل الله لهم العفو عما كان، والستر في الدنيا والآخرة، فقال مرجيًا لهم في الله، دافعًا كل قنوط من رحمة الله؛ حتى لا تبقى في نفوسهم حسرة من فعلة الماضي: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، لئن كان هذا الصفح مني مغفرة ورحمة، فالله عز وجل أرأف بعباده وأرحم.

عفو يوسف عن إخوته في هذا الموقف درس وعظة لذوي الأحقاد

* وإذا تأملت قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وجدت تمام العفو، ولمست عظيم الكرم، فلم يقل ائتوني بأبي وأمي، بل ﴿بِأَهۡلِكُمۡ﴾ واسم الجمع إذا دخل على المعرفة، عم، وأكّد ذلك المعنى بقوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ قاصيهم ودانيهم، لا تتركوا أحدًا.

* ولي مع قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ وقفات:

- منها أن القميص كان له شأن مع يوسف في ثلاثة مواطن: يوم أن جاؤوا عليه بدم كذب ليشهد على أكل الذئب له، ومنها قميصه الذي قُدَّ من دُبُر وكان شاهدًا على أن المرأة كذبت وهو من الصادقين، وهذا هو القميص الثالث، ولعله لـمَّا كان في المرة الأولى قد جاء الخبر السيئ بقميص ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف:١٨]، **ناسب أن يجيء الخبر الحسن بقميص**، فقميص مقابل

وقفات مع قميص يوسف

قميص، وقميص يزيل أثر قميص، وهذا أمر مشاهد، وهو من الأمور النفسية العظيمة، فقد يعلق في نفوس بعض الناس شيء سيئ، فيزال بمثله.

يحسن بالإنسان إذا أرسل احداً بأمر مهم ويخشى أن لا يصدق أن يرسل معه قرينة تصدقه

- ومن فوائد بعث القميص مع إخوته: **بيان أنه يحسن بالإنسان إذا أرسل أحدًا بأمر مهم ويخشى ألّا يصدق أن يرسل معه قرينة تصدقه،** كما فعل النبي ﷺ عندما قال لأبي هريرة رضي الله عنه: «**يا أبا هريرة ـ وأعطاه نعليه ـ قال: اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**»[1]، فأعطاه النعلين آية مُصَدِّقَة.

- وفيه أن بعض الأشياء المحسوسة قد تؤثر في بعض النفوس دون بعض، وعلى العاقل أن يتعامل بواقعية مع تلك الأمور المؤثرة على النفس، فإذا علمت أن شيئًا له في نفس فلان أثر، فتجدر بك مراعاته أثناء التعامل معه وإن لم يكن لذلك الشيء في نفسك مثل ذلك الأثر.

* ومن فوائد هذه الآية إشعارها بحال يوسف وأن ما تولاه من الأعباء بعد الوزارة لم يكن يأذن له في كثير حركة، فالقيام بمصالح الرعية، أولى من أن يبحث عن مصلحته، ويتشاغل بها.



(١) «صحيح مسلم» ١/ ٥٩ (٣١).

أثر البشارة

* يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ إن هذا المشهد يطبع في النفس إحساسًا خاصًا تعجز كلماتي عن التعبير عنه، ولنحاول التقريب، فيا ترى ما سرُّ تلك الريح؟ قال الرازي: «التحقيق أن يُقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة، ولا بد من كونها معجزة لأحدهما، والأقرب أنها ليعقوب عليه السلام، حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي، فظهر أن الأمر كما ذكر، فكان معجزة له. قال أهل المعاني: إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة[1]، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب، وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل»[2].

كل سهل فهو في زمان المحنة صعب، وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل

فإذا أقبلت على أمر يحزب فقل بلسان المؤمن الموقن: اللهم لا سهل إلّا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا.

---

(١) بنَوا تقدير المدة على بعض الأخبار ولم تثبت بها حجة، والأولى أن يقال مدة مديدة دون تعيين، والثمانون مدة طويلة جدًا، والله أعلم.

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٥٠٨).



* ثم قال: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: لو لا أن تنسبوني إلى الخرف، وبعض الناس تتمنى لو أنهم يكفُّون شرهم؛ فتلك صدقة على أنفسهم وعلينا، ولكنهم يثرِّبون ويتكلمون وهم لا يعلمون، ويعقوب عليه السلام في الوقت الذي يتطلع فيه إلى أيّ خبر عن يوسف يتحسب ردة فعل هؤلاء الأبناء فهل أجدى التحسب شيئًا؟ ما إن انتهى من كلمته حتى قالوا متعجبين: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥]، عبارة فيها غلظة وخشونة ما كان لهم أن يوجهوها لأبيهم فضلًا عن نبي، وذلك من جملة بلاء يعقوب عليه السلام الذي قضاه الله له ليرفع به درجته، فإن ظلم وجهل القرابة وقعه في النفس شديد.

لقد قالوا كلمة شنيعة وأخطؤوا خطأ قبيحًا وجاؤوا أمرًا يدور بين الكفر والقول النكِر، والجهل عذر قديم، بيد أن ذلك طرف يصور شيئًا من بلاء الأنبياء وما لاقوه من عنَت وتكذيب.

إذا رأيت محزونًا فواسه وابعث الأمل في نفسه

* الذي ينبغي إذا رأيت محزونًا، إذا رأيت مصابًا، أن تواسيه، وإياك أن تضيف إلى مصيبته مصيبة، وإلى حزنه حزنًا، حاول أن تساعده، حاول أن تبث التفاؤل في نفسه، حاول أن ترفع من روحه المعنوية حتى تخفف من مصيبته، فإن لم تستطع فكف شرّك عنه، ... إن لم تكن لديك القدرة على مساعدته في محنته حسيًا أو معنويًا فاحبس أذاك عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصيته لأبي ذر لـمَّا قال له: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «تكف شرَّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»[1].

* وبعد زمن يسير وصل البشير يشتد متقدمًا العير، يلوّح بالقميص، وجاء اليقين، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ

(١) «صحيح مسلم» ١/ ٨٩ (٨٤).



أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦]، ويبدو أن أولئك الأهل والأحفاد كانوا قريبين، أو أن جلبة البشير جمعتهم.

أهمية المقدمات للأخبار المفاجئة وتهيئة من حمل إليه خبر مفاجئ

* ومما تدل عليه هذه الآية **أهمية المقدمات للأخبار المفاجئة**، حيث كانت ريح القميص تمهيدًا ليعقوب عليه السلام فَشمَّ الرائحةَ قبلَ وصولِ الخبر، وتلك من إرهاصاته؛ ولهذا كان من الأهمية بمكان تهيئة من حمل إليه خبر من هذا القبيل، فإن كان لا بد أن تلقي خبرًا ثقيلًا على أحد فاختر الحال المناسبة وهيِّئْهُ لاستقبال الخبر؛ حتى لا تكسر ظهره، وربما راعى بعض الناس هذا في الأخبار المحزنة وغفل عن مراعاته في الأخبار المسعدة، وكم وقعت بسبب خبر سار مفاجئ لم يتوقعه المرء من انعكاسات سلبية، وقد أثبت المؤرخون ورواة الأقاصيص خبر من فُجِئ بالخبر السعيد فمات، ومن فقد عقله بالكلية، ومن فقد صوابه في موقفه.

الإقرار بالذنب على وجه الخضوع ضرب من الاستغفار

* هنا لم يملك الأبناء والأحفاد إلّا أن ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، أي: سل الله أن يعفو ويستر جرائمنا، ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، أتينا الخطأ عن عمد فصح إنزال وصف الخطأ علينا، والإقرار بالذنب على وجه الخضوع ضرب من الاستغفار.

إياك وما يُعتذر منه

* وهنا لك أن تقارن بين قولهم أول القصة: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩]، وبين مقامهم هذا المقام الذي تُقرع فيه سن الندم، وتُسكب في مثله عبرات التوبة، ويُعض فيه على الأصابع من الأسف،إنه موقف من أصعب المواقف، فما أشد لحظات الخضوع والاعتراف وما أقساها! فإياك إياك وما يُعتذر منه.

مدُّ الأيدي للعائدين المعتذرين

* وبالمقابل ما أشرفه من مقام! وأكرم بصاحبه وأنعم إذا وفقه من اختار سبيل الرشاد، ورأى الرجوع إلى الحق خيرًا من التمادي في الباطل! قد يعظم الذنب وقد يسودّ منه الوجه، بيد أن عبرات التوبة كفيلة بجلائه، ويعقوب عليه السلام

يدرك هذا، فكيف كان موقفه؟ هل طردهم؟ هل عاقبهم؟ هل عنَّفهم؟ هل بكَّتهم؟! بل ما ندت منه عبارة ولا تفلتت من بين شفتيه لفظة، ثم ها هو يصفح الصفح الجميل كما صبر الصبر الجميل، ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

أيها الآباء، أيتها الأمهات، أيها القادة، أيها المسؤولون، تعاملوا مع الناس بالشفقة، تعاملوا مع الناس بالرفق، تعاملوا مع الناس بالإحسان، تعاملوا مع الناس بالرحمة، ولْتكن لكم في الأنبياء أسوة.

* وقد ناسب الوعد بالتسويف ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ حال الآخرين الذين لا يسعه طلب عفوهم عن إخوتهم وأبنائهم إلّا بعد حين، فناسب ذلك أن يصرح باستغفاره الله لهم إذا جاء الأوان المناسب، ومع ذلك لم يدخل اليأس إلى نفوسهم، فعقّب قائلًا: ﴿.. إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٨].

* وفي هذا التسويف لفتة تربوية فكأنه أراد أن يشعرهم بعظم الجريرة وأنه لا يملك أن يقضي فيها عجِلًا، وهذا توجيه يناسب مقام الأب أو الجد، أما يوسف عليه السلام فقد قام مقام الأخ الأصغر، فما أن رأى إقرارهم بالذنب، حتى أسقط حقه واستغفر الله لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

طلب المغفرة وكل مهم ينبغي أن يتحرّى له الوقت المناسب

* وقد كان إظهار التوبة وسؤال المغفرة في ذلك المقام من الأبناء من الحكمة، فهم بادروا لما بدت لهم الآيات فلم يتكبر أحدهم عن الرجوع إلى الحق الذي سطع برهانه، كما أن نفس أبيهم في ذلك المقام منشرحة وعينه قريرة فحري به أن يجيب، وهنا تنبيه للأبناء بأن يتحرى أحدهم الوقت المناسب عند طلبه مُهمًا من أبيه، والحال المناسب، فكم من ابن طلب من أبيه أمرًا فردَّه، ثم لـمَّا ناسب طلبه حالًا أو زمانًا أجابه.

فاختيارُ الوقت، والمكان، والشخص المناسب، مؤثّرٌ في إجابة الطلب من الأب أو الأم أو الزوج أو الزوجة، بل حتى من المسؤولين، فإذا كانت لك قضية وتريد أن تتقدم إلى المسؤول بطلب فيها، فكن لبقًا؛ أحسِن الأسلوب، وتخيّر الحال المناسبة وكذا الوقت والمقام المناسبين.

العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية

* ومن الفوائد بيان أن «العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين»[1].

* الإعراض عن ذكر غير يعقوب عليه السلام يُشعر بأن المواقف التي ينبغي أن تُخلَّد وتُذكَر، هي تلك المواقف التي يخرج بها أصحابها إلى حد غير مألوف من الإحسان، وأن العبرة الحقيقية ليست في بيان الأحداث التي تهز العاطفة فحسب، وإلّا لأخبرنا الله في القرآن عن بكاء أم يوسف، وعن كمدها على فراق أخيه، وغير ذلك من العوارض البشرية التي يقتضيها مقام الأمومة، ولكن كان الغرض بيان عاقبة الصبر والإحسان غير المألوفين فانحصر الحديث في محله، والله أعلم وهو المسؤول أن يهدينا لفقه الكتاب.



(١) تفسير السعدي (٧٠٤).

تحقق الرؤيا
وتمام المنة وما يستوجبه

* انتقل الكلام من بيت يعقوب إلى قصر يوسف بأرض مصر، على المعهود من اقتصار كلام الله تعالى على بيان موضع العِبرة. ولما كان الاستقبال لا يشغل المشغول بتدبير مصالح المسلمين مثل الترحال لأجل البحث عنهم أو الإتيان بهم؛ خرج يوسف عليه السلام إلى مشارف المدينة ليستقبل أبويه وأهله، حيث يشعر ظاهر قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، بأنهم ما دخلوها بعد.

هل كان السجود ليوسف أو كان شكرًا لله ويوسف جهته؟

* قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾، أجمع أهل العلم على أن هذا السجود سجود تحية وإكرام، وسجود التحية من قبيل تقبيل اليد، غير أنه حُرِّمَ في شريعتنا؛ صيانة لجناب التوحيد، وسدًا لذريعة الشرك، فلم يكن عبادة مصروفة ليوسف عليه السلام، بل من جنس سجود الملائكة لآدم عليه السلام، ولم يكن سجود عبادة بالاتفاق.

وقد نُسخ سجود التحية في شرعنا ونُهي عنه فهو محرَّمٌ، ولو فعله أحد لأحد وهو يظنُّ أنه من ضرب التعظيم للمخلوق المشروع، فقد أتى ببدعة منكرة، وطرق طريقًا في هاوية الشرك مردية، وأما إن فعله لمقبور أو وثن أو شمس، فقد أتى كفرًا أكبر، فإن تحية أولئك لا تعقل، فلم يبق إلّا سجود العبادة، فإن قيل: بعض الأموات أحياء في قبورهم يُرزقون، قيل: لو كان حيًا حياة دنيوية لَما عُقل أن يسجد أحد لآخر محجوبًا عنه خلف غرفة سجود تحية، فلو رأى أحد أحدًا يسجد في سطح دار فهل يتصور أنه يسجد تحية لمن بالطابق السفلي، ومن فيه محجوبٌ عنه لا يراه، بل لا يحس

به؟ ومن زعم أن الميت يراه وهو محجوب في قبره، ويعلم ما قام في نفسه من تعظيم له، ويعلم أن سجوده له تحية وتبجيل ليس بعبادة، وظن أنه يسمع ما يسره في سجوده، فقد اعتقد كفرًا، وجعل للميت في علم الغيب المختص بالله شركًا[1].

من بدائع التوافق بين مبتدأ القصة وخاتمتها

* وهنا قال يوسف عليه السلام معلقًا على حدث السجود: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: هذه حقيقة رؤياي التي قصصتها عليك صغيرًا، قد صيّرها خالقي ومالكي ورازقي ومدبر أمري صِدقًا، مطابقة لهذا الواقع، وكأنه يُشعر أباه بأن النعمة بذلك بلغت تمامها، ويخبره بذُكْرِه لوصيته التي حفظها عنه وكان منها قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف:٦].

* وفي قوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠] مواصلة لِـما شرع في ذكره من نعم الله عليه، فذكر إخراجه من السجن، وكذلك مجيء أهله من مضارب الشام، فإن له جملة أسباب تولَّد عنها مجيئهم فناسب أن ينسب الفضل لـمُسبِّب الأسباب سبحانه لا لسبب لا يستقل بالتأثير في المجيء وحده.

---

(١) تنبيه: هذه مسألة غير المسألة المشهورة المتنازع عليها بين أهل السنة، أعني سماع الأموات، فمن قال بالسماع ـ وهو قول قوي ـ لم يقل بأن ذلك مطلق من كل مكان وعلى كل حال سواء كان سرًا أو جهرًا، والمقصود هنا جملة أفعال حاصلها الاعتقاد في الميت ما لا يليق إلّا بالله من السمع، ولا يليق أن يعتقد في بشر حيًا كان أو ميتًا إلّا على سبيل خرق العادة التي قام برهانها.

مراعاة مشاعر الإخوان

والملاحظ هنا أنه صرح بذكر الإخراج من السجن، ولم يصرح بالإخراج من الـجُبِّ، مع أن إلقاءه في قَعر مُظْلِمةٍ طفلًا صغيرًا أشد بلاءً من دخوله مكانًا مأهولًا شابًا أو كهلًا، والأظهر أنه ترك التصريح به مراعاة لإخوته، ولوعده بعدم التثريب، ولعفة لسانه وحيائه عليه السلام فلم يصرح واكتفى بإشارة نسب فيها شيئًا إلى نفسه بل قدمها فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، ثم قال:

معنى اسم الله اللطيف والآثار التربوية له

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ﴾ اسم يفيد كثرة وعظم رفقه سبحانه بعباده، وإيصاله الخير لهم من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون، وذلك لكمال إحاطة علمه بالظواهر والسرائر والخفايا، والبواطن والدقائق والخبايا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، دلالة على ما اختص به سبحانه من الحكمة التي لا يشركه فيها أحد، وعلى العلم الذي لم يحط به سواه سبحانه.

* وإذا كان الأمر كذلك والنعمة قد تمت، فكان من بديع النظم أن قال معقبًا: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]،

أهمية التوسل في الدعاء بما يناسب من الأسماء والصفات

فهي إشاراتٌ بين الابن وأبيه -عليهما السلام- ، وتذكيرٌ بما دار بينهما في الأيام الخاليات، بل تحدثٌ بالنعمة وتذكيرٌ بواجبها، وليست من الفخر أو الزهو بتحقق الرؤيا في شيء. وأيضًا فإنه لـمَّا رأى من واقع الحال أنه قد بلغ التمام، وعلم أن لكل مبتدأ ختام، توجه بالدعاء مبتهلًا لـمن دأبه الإحسان: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

* وقوله: ﴿.. فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما، وقد ناسب أن يدعوه بما يتضمن صفة الفعل هذه، فالذي فطر السماوات والأرض، هو الذي

يدبر الأمر فيهما، يُبوِّئ من شاء ما شاء، ويختص بعض خلقه بما أراد، بعلمه وحكمته ورحمته.

* ثم قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ لما أراد أن يظهر الشوق إلى لقائه بسؤاله الموت على الإسلام، قدم ما يناسبه فقال أنت وليي: ناصري القريب إلي، وهذا خبر أراد به الدعاء يدل عليه قوله: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة، وكل ذلك تدرج بديع إلى السؤال الكبير: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أهمية سؤال الله تبارك وتعالى حسن الختام

* وقف معي عند قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾، وتأمل في مناسبة هذا الدعاء، وانظر أيَّ مقام كان يقوم؟ ثم انظر أيَّ دعاء يقول؟! عَلِم عليه السلام أن بعد الكمال زوالًا؛ فسأل ربه إن جاءت منيته أن يموت على خير حال، وكأنك بنبي الله يوسف عليه السلام، وقد ذَكَّره المقام شيئًا أحب إلى نفسه وآثر، فلم يجد بدًا بعد أن بلَّ شوقه بلقاء أبويه وذويه، من أن يبوح بما جاشت به نفسه من الشوق العظيم، إلى لقاء الجليل، فانطلق لسانه بتلك الدعوات يوم أن اخضرت الدنيا وأينعت ثمرتها: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ولك أن تطابق بين قول يعقوب: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ وبين قول يوسف: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ لتعلم أي منزلة بعد تمام نعم الدنيا طلب.

حكم الدعاء على النفس بالموت وهل دعاء يوسف من قبيل ذلك؟

وقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ الأظهر فيه أنه ليس بتمن للموت، فالحال والوقت -وقت لقاء الأبوين- يبعدان هذا، وإنما هو سؤال لحسن الخاتمة والثبات حتى الممات.

* وتأمل حال يوسف عليه السلام، ضاقت به الدنيا فلم يقل: توفني! أُلقِيَ في الجُبِّ فلم يقل: توفَّني، وأقيم للبيع في سوق مَن يزيد ـ وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ـ فلم يقل: توفَّني، واتُّهم في شرفه وعرضه ولم يقل: توفني، وحُبِسَ في

السجن بضع سنين فلم يقل: توفَّني، ثم لـمَّا تمَّ له المُلْكُ، واستقام له الأمر، ولَقِيَ الإخوةَ سُجَّدًا، وألْفى أبويه على العرش عنده، وطابت الحياة له، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، فعُلِمَ أن حبه للقاء الله كان عنده أجلّ من النعمة التي حدثت له، فلله حب الأنبياء ما أنبله، وإيمانهم ما أعظمه.

* وتمني الموت لضر نزل لا يجوز، أما تمنيه لغير ضر بمقتض صحيح فجائز على الصحيح، وفي حديث أنس المتفق عليه: «لا يتمنين أحدكم الموت من ضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[1].

بهذا تنتهي القصة وقد اشتملت كما رأيت على دروس وآيات ما أكثرها، وأما ما بعدها من آيات ختمت بها السورة فقد جاءت بتعقيبات متناسبة مع مطلعها ومقصدها، كما سنرى.

وقد جاء خبر يوسف فيها آية دالة على نبوة محمد ﷺ إذ أخبر الناس، وعلم بني إسرائيل من أنباء من ينتسبون إليه؛ إسرائيل -وهو يعقوب عليه السلام- وبنيه ما لا يعلمون تفصيله، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف: ١٠٢]، ومع ذلك أعرض أكثرهم فهم لا يسمعون!



(١) ينظر «صحيح البخاري» ٥/ ٢١٤٦ (٥٣٤٧)، ومسلم ٤/ ٢٠٦٤ (٢٦٨٠). ورواه غيرهما.



عوارض في طريق الدعوة
وعاقبة المعرضين

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، وهذا تذييل متعلق بأحد أهم أغراض السورة وهو تسلية المؤمنين عما يجابهون به ويلاقونه من تكذيب المشركين وأذاهم، وفي هذا تزهيد له ﷺ من أن تذهب نفسه عليهم حسرات، أو تهلك على آثارهم حتى يؤمنوا، ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى:٤٨].

تقسيم الحرص إلى محمود ومذموم

* ما يظنه بعضهم من أن الله ذم الحرص بإطلاق، ليس صحيحًا، بل الحرص منه المحمود ومنه المذموم، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال ﷺ: «احرص على ما ينفعك»[1]، وفي التنزيل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨].

* الحرص المذموم هو ما كان على أمر دنيا لا نفع فيه، أو ضره أكبر من نفعه باعتبار المآلات، فمثل هذا الحرص جدير بأن يُذَم صاحبه، وقد نسبه الله لليهود في معرض التعريض فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ [البقرة:٩٦].

---

(١) «صحيح مسلم» ٤/ ٢٠٥٢ (٢٦٦٤).



* من المفاهيم الخاطئة عدُّ الحرص على أمور الدعوة محمودًا بإطلاق، والحق أن الحرص -حتى على أمر الدين- نوعان: حرصٌ إيجابي، وحرصٌ سلبي، فالحرص الذي يؤدي إلى إجهاد النفس وإرهاقها بأنواع الضغوط النفسية فلا داعي له؛ لأن هداية البشر بيد الله جل وعلا، وقلوب البشر بين أصابع الرحمن جل وعلا، لا نملكها نحن البشر، وإنما نملك البلاغ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ..﴾ [الشورى:٤٨]، ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

فالواجب التفريق بين الحرص على المبادرة وبذل الأسباب واستفراغ الوسع، وبين الحرص الذي يحطم النفس إن فات مقصودها، فذلك حرص على ما لم يجعله الله إلينا، وليس وراءه إلّا إثقال النفس بالهموم وإحراقها.

* ومن جملة التسلية قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وفيه تعريض بالمشركين، إذ أعرضوا عن اتباع من لا يريد منهم شيئًا من الأجر مقابل الخير العظيم الذي ساقه إليهم، فليتَهم رفضوه عن أجر ولو زهيد طلبه منهم، ولكن رفضوه بمحض الجهالة والسَّفه.

الفرق بين الدعوات المأجورة ودعوات الأنبياء

* كثيرة هي الدعوات المأجورات، أعني بها التي غرضها الأجر ولكن في الدنيا! والأجر هو كل منفعة دنيوية، مالًا، أو جاهًا، أو منصبًا، أو نحو ذلك، وهذه الدعوات في الغالب واضحة تتميز بالوفود من دول الغرب أو الشرق، أو تكون مبنية على أسس غربية أو شرقية، اغتر بها بعض منتسبي الإسلام وبنيه، وبعضها ربما اتكأ على أهواء متبعة وشبه محلية ليس للشرق أو الغرب فيها كبير يد، ويجمع سائرها ضعف في الإخلاص وخلل في الاتباع.



ومن الدعوات المأجورة نوع غير ظاهر وربما -للأسف- سقط في حباله فضلاء، وربما كانت دعوات للخير في مجملها، ومن أبرز علاماتها موافقة المستأجِر، فإن كان المستأجر هوى العامة، ألفيت دعواتهم تنسجم مع الموج، وإن كان هوى النفس وحب الشهرة والذكر، تلقى أولئك المأجورين على أحوال؛ فتارة يروجون لِمَا ينال استحسان الجموع، وتارة أخرى يركبون كل غريبة، ويحدثون الضوضاء العظيمة؛ لتلتفت إليهم الأنظار، ولخطورة الأمر جاءت النصوص الكثيرة في التنبيه على أهمية تمحيص قصد الدعوة، ونبذ أخذ الأجر على الدعوة، كما في هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

وهذه الآية وما شابهها من نصوص رسالة إلى الدعاة وإلى العلماء وإلى طلاب العلم حاصلها: إياكم أن تطلبوا لأجل دعوة الناس وواجب البلاغ أجرًا: أي منفعة دنيوية، فالجاه أجر، والتصدّر والتسوّد أجرٍ، كما أن المال والأعراض أجور، والعمل لأجل ذلك كله يدخل في باب: (من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا).

الدعوة العالمية، حاجة الناس إليها ومسؤوليتنا تجاهها

* وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي هذا الذي لا تسألهم عليه أجر وهو القرآن الذي تقص عليهم أنباءه، وتنذرهم به، للجن والإنس، بل لكل من سوى الله تعالى، وفي هذا التعقيب تحذير من التفريط في القيام بواجب إبلاغ العالمين، فلنتساءل ماذا فعلنا تجاه هذه الأمم الضالة الحائرة في الشرق والغرب؟ هل بذلنا أسباب الدعوة التي تهيأت لنا؟ هل استنفدنا الوسائل الشرعية المتاحة لأجل إيصال الحق للعالمين؟ إن هذه الآية تـحمِّلنا مسؤولية كبرى، أسأل الله أن يجعلنا أهلًا لها، قائمين بها.



* إن حاجة الأمم لِـمَا معنا من الذكر عظيمة، ولعل هذا من نكات تعقيب قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ فإن الحاجة للشيء كلما ازدادت تأكّد أن تكون مشاعة بغير أجر، كالماء والهواء، وإذا تأملت في معين الوحي، وجدت حاجة البشرية له أعظم الحاجات، فما حياتها بغير روح تهدي؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، إنها الحياة الحيوانية، الحياة البهيمية التي لم يخلق الله الخليقة لأجلها، فقد قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وإذا تبين هذا عُلم أنه لا يجوز لأحد أن يحجر تلك الدعوة العالمية، لا أن يمنع غيره من بلاغها، ولا أن يحبس في قلبه غيث الوحي الذي أنزله الله حتى يأسن فيه، فلا تنبعث به جوارحه، ولا يفيضه على غيره، وما أقبح صنعه إذا كان يحبسه يبتغي به أجرًا أي أجر كان.

عار عليك ترك الدعوة

* عار عليك -أيها الكريم- إن رأيت إنسانًا قد جهده العطش يستجديك شربة من نهر الله الذي أجراه بأرضك أن تمنعه، وبالمقابل ما أعظم أجرك إن سقيته، فقد صح عند مسلم أن امرأة بغيًا من بغايا بني إسرائيل رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بمُوقها فغفر لها[1]. وكذلك عار عليك أشد أن ترى ضالًا بإمكانك أن تهديه فتحجم ليضل ويشقى ويصلى النار الكبرى، هل هذه إنسانية؟ هل هذا موجَبُ الإيمان؟ هل هذه هي مكارم

---

(١) ينظر «صحيح البخاري» ٣/ ١٢٧٩ (٣٢٨٠)، ومسلم ٤/ ١٧٦١ (٢٢٤٥)، والموق: الخُف.

الأخلاق التي جاءت بها الرسل؟ سبحان الله! كيف تتحرك مشاعر الواحد منا من أجل سقاية إنسان، ولا تتحرك للحاجة الكبرى التي عاقبتها جنة أو نار؟

* ومن التسلية للنبي ﷺ كذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥]، والمعنى: أن الصدود عما تجيء به ليس بدعًا في خُلُق القوم، بل إعراضهم عنك كديدنهم في الإعراض عن أيِّ علامة ودليل كوني يدل على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، يمضون عليه فلا يلتفتون إليه، متغافلين له متشاغلين عنه.

الإعراض عن التوحيد يكون بجعل الشركاء مع الله

* وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ تنبيه إلى ما دخلهم من شرك في أمر دلت الآيات العظيمة على استحقاق الله وحده له، فيا حسرة على البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، يأتون الشرك وهم آمنون، ولا يعلمون أن فيمن أُرسِلَت لهم الرسل من يصلون ويتصدقون ويصومون ويحجون، وربما زعموا أنهم على آثار نبي من الأنبياء، ثم يفرِّق هؤلاء المتأخرون بينهم وبين أسلافهم المتقدمين بفرق ساذج فيزعمون أنهم يشهدون للرسول بالرسالة، وأولئك ما شهدوا له بها، وكأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أرسلت عندهم لا لغرض! فهل أرسل رسول لغير الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة: بالذبح والنذر والدعاء وغيرها؟ ألم يكن أبو طالب مُقرًّا بنبوة محمد ﷺ؟ فهل أغنى عنه ذلك من الخلود في النار شيئًا؟!

نعم هناك فرق ظاهر بين المتقدمين والمتأخرين من المشركين، فأولئك فهموا معنى الشهادة فلم يلفظوها، وهؤلاء جهلوا معناها فلهجوا بها وخالفوها.

* قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [يوسف:١٠٧] والغاشية التي تغشى أي: تغطي، والمقصود الإنكار عليهم إذ نبذوا الآيات، وخالفوا الرسل واستمرؤوا الإعراض عنهم، وكأن عندهم من الله عهدًا ألا يعذبهم بجنس من عذاب الدنيا والآخرة، كشأن من حق عليه ذلك في الأمم السالفة، أو كأنهم أمنوا الساعة أن تأتيهم فجأة دون إعلام. فإن من أمن عذاب الله في الدنيا والآخرة أو علم أن الساعة لا تأتيه حتى يُؤْذَن، فربما أعرض راكنًا إلى ما أمن، فهل أولئك كذلك؟ هل يعتقدون هذا حقًا؟ إن هذا الاعتقاد لا يكون إلّا مع عظيم الجهل والغفلة، ألم يكن حري بهم أن يفروا إلى ربهم؟ بلى، ولكن كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:٩٦].



منهج الدعوة وأس نجاحها

* يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، جاءت هذه الآية موضحة الذي يجب علينا، مبينة أسسًا مهمة من أسس الدعوة، حاصلها: يا محمد؛ أعلنها صريحة مدوية بيّنة جلية لا خفاء فيها ولا غموض أن مسؤوليتك هي الدعوة والبلاغ، وقل هي طريقي الممتد الذي أسلكه وأثبت عليه، وهذا يدل على أهمية الاطراد وخطورة الاضطراب، وفيه بيان أن الدعوة محفوفة بالسماحة واليسر التي تلحظ في التعبير بالسبيل دون الطريق، وأما ما يعترضها من مشاق فبسبب أصحاب الأغراض والأهواء الذين يسوؤهم السير في ذلك الطريق، فلا بد أن يضعوا لسالكه الحسك والأشواك، ويحدثوا الحفر وأكوام التراب، وربما عرضوا له ليقطعوا عليه الطريق إن كانت لهم اليد والقدرة، ومع ذلك لا مناص من سلوك تلك السبيل؛ لأنها سبيل محمد ﷺ الذي أُمِرنا باتباعه.

طريق الدعوة وصفاته

* وفي هذه الآية دليل على مسألتين عظيمتين: الأولى: وجوب العلم (البصيرة)، والثانية: وجوب الدعوة إليه، وهاتان المسألتان تستلزمان العمل بالعلم، وإلّا فإلى ماذا يدعو الناس؟ وكذلك الصبر على الأذى فيه وذاك أمرٌ لازم لطريق الدعوة، فقد اقتضت سنة التدافع وجود أقوام يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به يبغونها عوجًا.

وجوب العلم والعمل والدعوة والصبر



الدعوة إلى الله على بصيرة وواقع كثير من الدعوات

* وهنا وقفة مهمة أشار إليها قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فإذا تأملت واقع الدعوة المعاصرة في العالم الإسلامي، وجدت كثيرًا من الدعاة الـمُبَرَّزين بل من قيادات العمل الإسلامي لم تكتمل لديهم البصيرة، بل ليست عندهم البصيرة الشرعية التي تؤهلهم للقيام بما هيئوا له، فهم لم تخصصوا في علم الشريعة، وليس لهم مجلس علماء أعلى يصدرون عنه ويأتمرون بأمره، كشأن كثير من أهل الاستبداد المتحكمين، نعم قد يكون ذلك الرجل متخصصًا في أمور أخرى، وهو على خير وهدى وصلاح، ولكن مثله ليس أهلًا لأن يقود العمل الإسلامي، أَوَيليق بطبيب حاذق أن يرأس فريقًا من المهندسين؟ وهل يناسب أن يرأس فريقًا من الجرَّاحين مهندس؟ ولعل هذا سبب من أهم أسباب تأخر العمل الإسلامي، بل ـ وللأسف ـ فشل العمل الإسلامي في كثيرٍ من بلاد المسلمين.

قد يقول قائل: ربما لم يجدوا إلا هذا، فليس عندهم عالم، وإن لم يكن إلا ذاك فلا شك أن من السياسة الشرعية تقديم الأكفأ فالأكفأ حسب الحاجة والطاقة والإمكان، فيقال لهؤلاء: ألا يمكنهم الظفر بمتخصص واحد في العلم الشرعي حقًا؟ لئن كان الجواب: لا يمكننا، فإن في تلك الدعوة لإشكالًا، ولو فرض جدلًا أنه ما بها بأس ولكنه اندراس العلم في بلادهم، أفلا يمكنهم أن يبعثوا نفرًا ليتفقهوا في الدين خلال خمس أو عشر سنوات ثم يجيئون لقيادة العمل؟ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهذا الواقع في كثير من دعاة العالم الإسلامي لا يختلف عن واقع الرياسة، وما تأخرت أحوال المسلمين وتقهقروا إلى ما هم عليه الآن شيئًا فشيئًا إلّا بعد أن تولى أمرهم -في جل بلاد الله- رؤوس جهّال، أقصوا أمر العلماء شيئًا فشيئًا، وإلّا فالأصل أن يقدم العالم لقيادة الأمة إذا توافرت فيه بقية صفات القيادة، كما

قدم الخلفاء الراشدون على غيرهم، فإن تعذّر فلا أقل من أن يكون هناك مجلس شورى شرعي يكون هو الآمر الناهي في كل قضية شرعية، لا تنتقى لفضله أمور دون أخرى! إذا أردنا أن يكون الدين كله لله، هذا هو الأصل الذي لـمَّا تخلَّف تخلَّف أهل الإسلام منذ عقود، بيد أن الولاية العامة لها أعمال ومهمات تختلف عن قيادة العمل الإسلامي، فإن من تحمل أعباء صياغة مجتمع صياغة إسلامية وتصدر لهذا، لزمه أن يعرف الإسلام حق المعرفة أولًا.

أتباع محمد ﷺ هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله

* وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ قال ابن القيم رحمه الله: «أتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله»[1]، فمن اجتمع فيه الوصفان، فهو من أتباعه، وكلما كمل العلم وكملت الدعوة كمل الاتباع، وكلّما ضعفا، ضعف.

* ثم قال الله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا عطف على قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، فسبيله ﷺ يتميز بسمتين: الأولى: الدعوة إلى الله، وأول ما يدخل في ذلك توحيده اللازم لمعنى الله؛ الإله المعبود حبًا وتعظيمًا، والثانية تسبيح الله: أي تنزيهه من أن يكون له شريك، ولا شك أن شهادة التوحيد هي أصل الدعوة، فالأمر بالتوحيد يدخل فيه كل أمر بطاعة ومعروف، والنهي عن الشرك يندرج فيه النهي عن كل معصية ومنكر يدعو إليها ما سوى الله.

سبيله ﷺ يتضمن الدعوة والتنزيه

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه خلق الخليقة لتوحيده، وقَصَر الحكمة على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فالمقصود من هذه الخليقة: أن يُعظَّم الله، وأن يُطاع في هذه الدار، وأن يعظم أمره ونهيه، وتحكّم شريعته، وأن يعبد وحده سبحانه وتعالى بطاعة أوامره، وترك نواهيه، وقصده سبحانه في طلب الحاجات، وعند الملمات، ورفع الشكاوى إليه، وطلب الغوث منه، والاستعانة به في كل شيء، وفي كل أمر من أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) «الصواعق المرسلة» ١/ ١٥٥.

من سبيله ﷺ البراءة من المشركين

* وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، عطف آخر أشار فيه إلى مقتضى ما سبقه وهو البراءة من أهل الشرك، فسبيل محمد ﷺ، الذي أُمر أن يعلنه صريحًا: الدعوة إلى التوحيد، والتنزيه عن الشرك، والبراءة من المشركين أجمع، فالله المستعان وهو المسؤول أن يوفق لسلوك تلك السبيل.

أصول الدعوة الثلاثة

* ولعل من نكت الجمع بين هذه الثلاث بيان أهمية التزامها جميعًا، فهي دعوة لكل دعوة بأن تراجع نفسها وتنظر في سيرها وسبيلها بناء على ضوء تلك الأصول، ومهما وجدت دعوة لم تعبأ بالتوحيد ولوازمه، ومهما رأيت دعاةً لا يعبؤون بتنزيه الله عن الشريك وعن كل ما يجب تنزيه الله عنه، ومهما أبصرت دعوة توالي أعداء الله وتقصي أولياء الله، فاعلم أنها على غير الجادة قد حادت عن سبيل المعصوم ﷺ، ومقياس القرب والبعد عن طريقه ﷺ هو درجة التزام الدعوة بتلك الأصول، ومدى قُربها وبُعدها عنها.

الإشارة إلى أن المؤهلين للقيام بشؤون الدعوة العامة هم الرجال

* قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف:١٠٩]، فالله أرسل رجالًا، لم يرسل ملائكة أنبياءَ ولا جنًا، فالمرسلون بشر خُلقوا مما منه خلقوا، رجال كسائر الرجال إلّا أنهم مسدَّدون بالوحي مؤيدون به، وفي هذه الآية إشارة إلى أن المؤهلين للاطلاع بشؤون الدعوة العامة هم الرجال، فما أرسل الله امرأة قط، وليس ذلك تنقُّصًا لها فالله ما أرسل ملكًا للدعوة ولا أرسل امرأة، ولعل الحكمة في ذلك ترجع للجِبِلَّة التي خلق عليها الرجل؛ فإنها تؤهله للقيام بواجب الدعوة العامة دون النساء.

أهمية دور المرأة في الدعوة

ولا يعني هذا أن النساء لا ينبغي أن يكون لهن حظ في الدعوة، بل ينبغي أن يضربن فيها بحظ وافر، بل هن على ثغر لا يسد مسدَّهن فيه غيرهن، فالمرأة هي الظهير والردء والخليفة في شؤون الداعية التي تلزم بيته، فما أعظم مسؤوليتها إذا انضافت إليها دعوة بنات جنسها أو أقاربها، وما أجل مكانها في قلوب المؤمنين

إن قامت بما يليها، غير أن الدعوة العامة التي تتطلب لقاء ومواجهة، وخطابًا ومناظرة، وجهدًا ورحلة، واتصالًا بعموم الناس وبروزًا لهم، لا تناسب طبيعة النساء، وتعترضها كثيرًا من المحرمات كالاختلاط والبروز في المجامع للعامة، وتليين الكلام معهم، إلى غير ذلك.

النظر في آثار الغابرين

* وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف:١٠٩] الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ للتقريع والتوبيخ والإنكار، فهم قد ساروا وسمعوا الأخبار ورأوا الآثار، والضمير في ﴿يَسِيرُوا﴾ عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر، ومن عاند الرسول وأنكر رسالته، فقال: هلّا يسيرون في الأرض فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة، ويرون مصارع الأمم المكذبة، فيعتبرون بذلك؟

* قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وإذا كان المآل هو الانتقال عن هذه الدار، سواء حلت بالمكذبين المَثُلات التي نزلت بالأمم السابقة أو لم تحل بهم، فإن الدار الآخرة التي ليس بعدها دار خير للذين اتقوا الشرك ومخالفة الرسل في الدار الأولى، أفلا يعقل هذا المعنى فيُعْلَم ويُعْمَل به!

متى نصر الله؟

* ثم قال الله مخبرًا عن سنته الماضية في رسله، الباقية في أتباعهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، فذكر الغاية التي يجيء بعدها النصر، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ والاستيئاس استفعال من اليأس؛ لم يذكر الله تعالى ما صاروا يائسين منه، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس، والأقرب أن المراد: استيأسوا من إيمان مكذبيهم، فالسياق قبلها وبعدها يشعر به.

* وقوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قرئت بالتشديد والتخفيف، والمعنى ما قالته عائشة رضي الله عنها وطائفة من السلف؛ أي: خافوا تكذيب من معهم من المؤمنين لهم، وهو الذي يتعين في السياق.



نصر الله آت قريب ممن صبر

* ثم قال الله تعالى: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، بعد تلك الحال التي وصف، يجيء النصر، فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وإذا كان الأمر كذلك فاصبر للبلايا فحينها يسير، وأثبت للرزايا فأجرها كثير، وأحسن قِرى ضَيفِ الهمِّ بالصبر الغزير، وتجلد على الظمأ فبين يديك ماءٌ غريرٌ، ولا تكن من الظانين بالله ظن السَّوْء فإن الله أولى بالجميل، ولا تكن من القانطين فإنه عز ذكره يفرج عما قليل.

رأيتُ العسرَ يتبعه يَسَارٌ   وقيلُ اللهِ أصدقُ كلِّ قِيلِ

وهكذا إذا بلغت الحال بالرسل وأتباعهم أقصاها، جاءهم نصر الله، إما بظهور المؤمنين، أو بعذاب من عند الله يُهلِك به المكذبين، وأيًا ما كان، فحينها لن تجد لبأس العزيز الجبار معارض رادّ يدفعه عن مستحقيه، وهم المجرمون.

* وقوله: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف:١١٠] إشعار بأن الله ينجّي من يشاء من عباده المؤمنين، فيجعل لهم الظفر، وقد يكتب الحسنى الأخرى لطائفة أخرى منهم، وأولئك لن يضيع الله أجرهم، بل ما أعظم غبطتهم بما يلقون، إما النصر وإما الشهادة.

الثبات هو الفوز الكبير

* إن الفوز الكبير في الآخرة منوط بالثبات على الطريق بعد ولوجها، وليس منوطًا بقطعها، فإن النية تبلغ ما لا يبلغ العمل، والمعول على التزام المرء أمر الله، لا على ترك غيره من الخليقة أمر ربه، ومن جملة التزام المرء أمر الله تبليغ الرسالة، وأما الهداية التوفيقية فليست إليه، والانتصار الحقيقي هو ثبات المرء على منهج الله، وذلك هو الفوز الكبير، وإن مات أو قتل! ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن

يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ٤-١١] فهل رأيت في القرآن تعقيبًا يصف الله فيه الفوز بهذا الوصف إلّا في هذا المقام؟ فإذا فقهت هذا فلا تعجب إن رأيت رصاصة آثمة تخترق جمجمة مؤمن وهو يقول كلمة سلفه: «فزت ورب الكعبة» إي والله ذلك هو الفوز الكبير.

آثار تخلف الصبر في واقع الجماعات الدعوية

ولقد تأمَّلت في واقع الدعوة في عصورنا المتأخرة فوجدت أن الدعاة والجماعات والمؤسسات الدعوية على أحوال، فمنهم من رأى أن طريق الدعوة طريق طويل شاق، فاستعجل قطعه، فخرج عنه وحاد ذات اليمين ليختصره فضَلَّ، فأعلن بعضهم الجهاد قبل أوانه، بل في غير مكانه، مع مَنْ شأنهم أن يكونوا من أهل دعوتهم، فكيف كانت النتيجة؟

ومنهم طائفة أخرى قابلت هؤلاء، أولئك هم الفئة اليائسة البائسة، دعت ودعت ودعت فلم ترَ استجابة، طولبت ببذر بذورٍ فظنت أن لها ثمرة مأكولة وأنها مكلفة بجلبها وفي الحال، وإن لم ينزل الله غيثًا من السماء، وإن لم يكن ثمة ماء، فلما لم ينجح المراد انقسموا إلى فريقين: فمنهم من قعد قانطًا متشائمًا آيسًا ترك الحرث والبذر والعمل المكلف به المتعاقد عليه بالأجر، المتوعد على التلكؤ فيه بالعقوبة، فتركوا السير والعمل، وركنوا إلى ظل زائل، وقد كفّوا خيرهم وشرهم، فهم على عجرهم وبجرهم خير من الفريق الثاني: الذين رأوا أنهم مكلفون بجني الثمار، وبأي سبيل، فلما مرت الأيام ولم يروا للبذر أثرًا، طفقوا يسرقون وينهبون ويستجدون ويأتون كل منكر لتحصيل ثمرة موهومة غير مرادة وليست بمأكولة! فتنازلوا وتساهلوا في دين الله وفرطوا باسم التيسير، وما كان التنازل عن شريعة

الله أو التفريط فيها تيسيرًا، بل إخراج للبشر من شريعة الله إلى عبادة البشر واتباع أهوائهم، وفي ذلك العسر في الدنيا والتيسير للعسرى يوم القيامة!

أمّا الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فهي التي لم تزل على الحق ظاهرة، ملتزمة بمنهج الرسل، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

أهمية التفريق بين الثوابت والمتغيرات

ومن فقه هؤلاء أنهم يفرقون بين ما يلزم الثبوت عليه وما لا يلزم، يعرفون أن الوسائل أمرها واسع ما لم تخالف شرعًا، فكان هذا مما أَهَّلَهم للثبات على الثواب وأصول الدين. وقد يكون هؤلاء في أزمان هم الغرباء الأقلون القابضون على الجمر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

* ثم قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١]، المعنى: لقد كانت في أخبار يوسف وإخوته وأبيه وغيرهما من الأنبياء الذين ذكرهم في الآيتين قبلها عبرة أي: لقد كان في أخبارهم أصل ترد إليه النظائر، وتؤخذ منه العِظات، ولكن لا يوفق للانتفاع إلّا أولو الألباب أصحاب العقول الذين يقيسون ويعتبرون بالسابق على اللاحق، أما الذين عطّلوا عقولهم، معرضين عن دعوة الرسل، عمين عن الآيات التي يمرون عليها، فلا يعتبرون، وفي هذا تحذير لأولئك الذين يخوضون في قصص الأنبياء، ويأتون فيها بكل عجيبة من أنباء بني إسرائيل لأجل التسلية والإثارة، فالقرآن أنزل ليعتبر به، لا لـمجرد السَّمَر.

العبرة من خصائص أحسن القصص

* وفي قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ تنبيه إلى أحد أوجه قوله تعالى في أول السورة: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] ، فقصص القرآن لا تضاهيها الأخبار المخترعة، كقِصص الخيال العلمي السمجة، وأحاديث الجن والغول، وترهات الأفهام والعقول، وسائر الخرافات الخارجة عن حد المعقول، إذ لا



اعتبار فيها ولا قياس تحصل به العظة، فغايتها هزّ عواطف الصغار وضعاف النفوس حينًا في غير جدوى، بل ربما أحدثت ضررًا، وبنت مفاهيم مغلوطة.

أما قصص القرآن فيحصل بها الاعتبار من الواقع الحاضر أو التاريخ الغابر، فالقرآن وما تضمنه من أخبار ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: يقتطع من تلقاء النفس ويختلق، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس:٣٧]، أي: هو حق مصدِّق لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، كالتوراة والإنجيل والزبور، يصدِّق ذلك كله ويشهد أنّ جميعه حق من عند الله، كما أنه مبين للصادق منها، ومميز له عما زيد فيها وأسيء من تأويله.

من أوصاف القرآن الكريم

* وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، صفة ثالثة للقرآن، فأما الأولى: فكونه عِبرة، والثانية: ما كان حديثًا يفترى، والثالثة: أنه تفصيل كل شيء، فالقرآن ميَّز وبيَّن كل ما يصح أن يطلق عليه لفظ شيء، إما بخصوصه أو بعمومه، وقد لا يكون في كتاب الله تفصيله، لكن تفصيله فيما دل كتاب الله عليه، كما في كتاب الله من الأمر باتِّباع السنة واتباع سبيل المؤمنين، وفي ذلك تفصيل لكثير من الأشياء، فيكون تفصيلها في كتاب الله بهذا الاعتبار؛ لأن جامع الجامع جامع، ودليل الدليل دليل.

* ثم بيَّن سبحانه أن هذا الكتاب الذي فيه تفصيل كل شيء لن يوصل متبعه إلّا إلى كل خير، فوصفه بأنه هدى، يرشد من جهل الحق فعمي عنه، وإذا كان هدىً فلن يضل متبعه، ثم وصفه بأنه رحمة؛ ليبين أن متبعه كما أنه لن يضل فإنه لن يشقى، فليس تفصيل كل شيء وبيان حكمه ضرب من العنت بل هو هدى ورحمة، ولكن لقوم يؤمنون، يصدقون ويتبعون، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ضلال من التمس الهدى في خلاف الكتاب

* وإذا كان هذا القرآن فيه تفصيل كل شيء، وهو مع ذلك هدى ورحمة، فما بال أولئك الذين يطلبون الهدى في غير هذا الكتاب؟! ما بال أولئك الذين شرَّقوا وغرَّبوا يقتبسون من شرائع الغاب وقوانين الغرب؟! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، انظر إليهم في أقطار الأرض البعيدة إلى أيِّ دركٍ تردَّوا؟ فعجبًا لـمن رأى الضلال البعيد رشدًا، وعَمِي عن سبيل الهدى وطريق الرشاد وهو بين يديه! عجبًا لـمن ظن الحضارة والترقي حياة بهيمية في حظائر عصرية! لقد تشابهت قلوبهم، وأظلمت نفوسهم، وخفت نور الإيمان عندهم، فلم يروا في الكتاب هدى ورحمة فذهبوا يقتبسون من نار الغرب الـمحرقة، ويتهافتون عليها تهافت الفُرُش مع أهلها، ويأبى الله أن يجعل أهل الإيمان من أهلها، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، أَوَلا يجدر بهم أن يسلموا للكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلت:٤٢]، أليس الذي أنزله هو الذي خلقهم؟! أَوَليس خالقهم هو الأعلم بالأمر الذي يصلحهم؟! ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]. بلى والله فما أحوج الأمة إلى عودة صادقة إلى كتاب ربها لتعود إلى سابق عهدها، وتظفر بالـهدى والرحمة.



خاتمة

وفي الختام حريٌّ بنا أن نتدبر العبر والآيات في هذه السورة، وما فيها من حسن عاقبة الصبر والتقوى، خلافًا لما يتوهمه المستعجلون الغالون أو المفرطون، فكم من موقف مر بيوسف عليه السلام لو عرض لبعض أهل التأويل والتساهل، لترخصوا بما لم يجعل الله لهم فيه عذرًا! وكم من موقف لو عرض على الغلاة لما اتسع له فقههم جهلًا.

على العالم أن يتدبر هذه السورة؛ ليزداد يقينًا، وتنشرح نفسه وإن خالفه الجاهلون، أو فنَّد رأيه المغترون بالظواهر، وأمور الدنيا.

على الداعية أن يتدبرها؛ ليعدل مساره، وفقًا للطريق الذي سار عليه أنبياء الله، والمنهاج الذي أرشدنا إليه الله عز وجل.

على الأمة أن تتدبرها؛ لينبعث في نفوس أبنائها التفاؤل، ولتعلم أنَّ بعد العسر يسرًا، وأن لله تدبير محكم، ولطف خفي، ومكر بأعدائه، وأنه منتصر لأوليائه.

على الناس أن يتدبروها؛ ليعلموا أهمية التوحيد، ومكان العقيدة الصحيحة في دعوة الرسل، ولا غرو إذ فيها النجاة وفيها السلامة.

علينا أن نقرؤها للامتثال والاقتداء معتقدين أن الخير كل الخير في كتاب ربنا، إذا أخذنا به صلح أمرنا، وإذا أعرضنا عنه خذلنا بذنوبنا.



هذا والله أسأل أن يجعلني وإياكم من أولي الألباب المعتبرين، التالين لكتابه المتدبرين لآياته، الذين لهم من الهدى والرحمة في الدارين أوفر نصيب، فقد قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد، وعلى الأنبياء والمرسلين، وعلى مَن سلك سبيلهم واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



فهرس الموضوعات



تم بحمد الله

